غصن الزيتون

محمد عبد الحليم عبد اللّه

الطبعة الأولى
٢٠١٨ م

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
سعيد عبده مصطفى

كتب ثقافية
قصص وروايات

تصميم الغلاف:
محمدجمال

لوحة الغلاف بريشة
سارة شريف

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكترونى
بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل –
القاهرة – جمهورية مصر العربية

عبد الله، محمد عبد الحليم، 1913 – 1970.
غصن الزيتون/ محمد عبد الحليم عبد الله.
ط 1 – القاهرة: دار المعارف، 2017.
244 ص، 19.5 سم
تدمك 2 8627 02 977 978
1 – القصص العربية.
(أ) العنوان.
تصنيف ديوى: 813
رقم الإيداع: 23567/ 2017
رقم أمر التشغيل: 1/2017/78
رقم الكونجرس: 7 – 840471 – 01 – 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

١

قــد تكون قصة غيرك هــى الفصل الأول من قصتــك... وأنت لا تدرى؟.. وعندما ينكشــف لك ذلك فجأة، تدق كفا بكف، ضاحكًا، أو باكيًا، على حسب الظروف..

وبعد ذلك ينكر بعضنا أن شيئًا ضخمًا.. قويًا.. مجهولًا.. يسيطر على «قصص» الناس..

وكم من ليلة سهرناها نرسم «الخطة»، وعند مطلع الصبح فوجئنا بأن «الخطة»، «مرسومة» على صورة لا نعلمها...

* * *

كانوا يكثرون الحديث عن الحب، لأنهم كانوا فى سن الشباب!! فى الســنوات التى نحس فيها بوجود «القلب» إحساسًا واضحًا، قد لا يطغى عليه إحساسنًا بالجوع.

كانوا كذلك، وكنت واحدًا منهم.

وكنــا جميعًا مدرســين فى «مــدارس النصر» الحــرة الخاضعة لتفتيــش وزارة المعارف، والواقعة عنــد ملتقى عِدة أحياء وطنية، المليئــة بأبناء الطبقــة الفقيرة، وقليــل من أبناء المتوســطين، فى الرياض، والابتدائى، والفنون.

أما أحاديث الحب بيننا، فقد كان لها أوقات كثيرة.

نتكلم عنه فى فسحة الظهر بعد الغداء، ونتكلم عنه عندما نلتقى فى المساء على القهوة القريبة، ثم نتكلم عنه همسًا وبسرعة إذا اقتضت الظروف فى الفسحة القصيرة، أو فترة التغيير، وكنا لا نسأم.

كنا نطبخ منه ألوانًا عدة، ونصنع منه «شربات» كثيرة، وهو شىء واحد!!

اللذة والنكهة والمأساة... نصنع كل هذا منه، فيمنحنا من الطاقة والقدرة والاحتمال فوق ما نحمله.

وهكذا شأن الشباب!!

وكنت بين إخوانى فى المدرسة أشبه بالمستقلين القلائل فى برلماناتنا القديمة، لا يحسب حسابى لشخصى ذاته، وإما يحسب حسابى داخلا ضمن مجموع. وإن أفقدنى هذا لذة التمتع بقوة الشخصية، فقد أكسبنى لذة تأتى فى المرتبة الثانية، ولكنها لا تتناسى، فقد كان يتملقنى كل فريق، ويحاول ضمى إلى صفه، فأجنى من هذا ثمرات. وكنت غير سريع البت، بطيئًا بطبعى مترددًا. فأطال هذا مدة تملقهم لى.

وكنت أبدو فى صورة غريبة، صورة شاب راكد العاطفة خامل بليد، لا يعنيه من أمور النساء قليل ولا كثير، فأفادنى هذا «السلب» «إيجابًا» جميلًا، هو أن كل زميل لى فى المدرسة، كان يأتمننى على سره، ويبثنى هواه حين يعلق قلبه بقصد، أو بغير قصد بإحدى الآنسات من المدرسات أو الطالبات.

وكنت أشــارك فى أحاديث الهوى بنقاش بارد، لا يتناسب مع حرارتى الحقيقية، ولا حرارة الموضوع. وقد أضحك والدمع يترقرق فى عينى من يحدثنى، ولكنه حين يتركنى فأخلو إلى نفسى وأستعيد ما قال، أحس من أجله ألمًا مناسبًا.

وهذا طبعى. أكابر، أكابر، ثم أنهار. وأتكلف من الأمور ما يعد صعبًا، وإن كلفنى هذا فوق ما أطيق.

على أننى كنت بين إخوانى كما قلت لك، موضع الراحة، ومكان النجوى، ومخبأ السر. وقد أبدى لهم من النصيحة فى أمر من أمور قلوبهم، بقدر ما تسمح به مواهبى.

وكنــت متمتعًا بفضائل ولدتها بعض الرذائل فى نفســى، أولها – وهو الذى أعجب إخوانى منى – أننى كتوم للســر، وذلك ناشــئ مــن أننى غير جدل ولا كثير الــكلام. وأحبنى الناظر والمدير لأننى مطيع، وذلك ناشئ من أننى أخاف. وتحدثنى ناظرة مدرسة البنات عن استقامتى، وذلك ناشئ من أننى جبان. وقال عنى زملائى إننى كريــم، أقرض مالا قد أكــون محتاجًا إليه، وذلك ناشــئ من أننى سريع التورط.

هذه هى حقيقة فضائلى.. وكثير من فضائل الناس زيف وبهتان.

غير أن هذا لا يتنافى مع أن حياتنا كمجموع كانت سعيدة.

كنا نضحك حتى تســيل دموعنا لنكتــة يرويها «حموده» نظير نصف ســيجارة، قد يخطفها منه أحدنا بعد أن يقبلها القبلة الأولى

(على حد تعبيره). ونحتال علـى أحدنا حتى يطلب لنا إبريقًا من الشاى من «بوفيه» المدرسة، بحيل نقضى فى ترتيبها جهدًا ثقيلًا. وقـد نهاجم زميلا لنا على حين غرة، لنتناول معه طعام الغداء فى آخر الشـهر، حتى صار العزاب منا يأكلون فى الخارج أو يتغدون والنوافذ مقفلة.

وتأتى بعد ذلك أحاديث الهوى...

وهى تنسج نفسها كما تفعل خلايا الجلد، وتتكاثر وحدها مثل «بكتيريا» الخميرة.

وزعنا المدرسات على المدرسين.. هكذا بالقوة... قهرًا وقسرًا!! لأنـه لابد لكل ذى قلب أن يحب!! أمـا الطالبات الناميات اللائى يبدو عليهن أنهن أكبر من سنهن، فقد وزعنا بعضهن على المدرسين وبعضهن على طلبة صغار، لكنهم سكروا باكرًا بخمرة الشباب.

لا بد لكل ذى قلب أن يحب!!

وبما أننى هادئ قنوع، يبدو على الرضا والمسـالمة، فقد اختصنى الشـبان بإحدى العوانس من المدرسـات، من اللائى بخلت عليهن الطبيعـة بالنهاية الصغرى التى تمنحهـا للقمة حتى تبلع. وكنت أضحك ويحمر وجهى، وأتكلف من الوقار ما لا يتناسب مع شبابى.

وكان بـين تلـك الدعابـات وتلـك التوافه حقيقة كـبرى، كنا نتجاهلهـا أحيانا، لأن حقائق الحب تثـير الغيرة، ونعترف بها حينا لأن الحقائق تنطق الألسن.

كان بيننا من يدعى جمال أفندى.

وقد كانت القاعدة فى توزيع المدرسين على الفصول أن يختاروا لمدارس البنات أتعس الوجوه من الشبان، أو من المسنين الذين يصلون الظهر فى فسحة الغداء.

لكن زميلنا جمال أفندى شذ عن القاعدة من كل أطرافها، فقد كان شابًا وسيمًا... ولم يكن من المصلين!!

وتساءلنا عن السر، ثم كففنا عن التساؤل، ثم ألف الموقف الشاذ كما تؤلف القاعدة، ثم سارت الحياة سيرة عادية، وعلق حمودة أفندى على هذا آخر الأمر بقوله: «إن حريم السلطان، لم يخل قط من الرجال».

لكننى بينى وبين نفسى كنت أومن بمواهب جمال.

كان يحمل مفتاحين من أحسن ما صنع الله لفتح قلب المرأة!! يستعمل أحدهما منذ أول وهلة يلتقى فيها بامرأة، ثم يبدأ فى استعمال الثانى بعد ذلك «على طول».

كان وسيمًا... وكان كذابًا..!! وهذان هما المفتاحان!!

والضحايا من العذارى على الخصوص، يخرجن غالبا من تحت عجلات «الوسماء» «الكذابين».

ولم أستطع أيام شبابى، ليالى عاصرت هذه الحوادث، أن أفهم السر. سر افتتان النساء بالكذابين، لكننى بعد أن تابعت السير، ودست فى طريق العمر على زجاج وأشواك، فهمت السر!!

المخلوق الــذى يحب النور الخافت، ويثيره الشــعاع الأحمر فى الغرف المقفلة، لا يســتهويه كثيرًا أن يعيش فى الجو الطليق تحت النور الساطع، حيث يرى كل شىء، فلا حواجز ولا ظلام. وهنا يشعر بالملل الذى يجعل ســعادته أباديد. فيتثاءب، ثم يتمطى، ثم يتلفت بعينين ناعستين باحثًا عن السعادة!! هذا المخلوق، هو المرأة!!

ومن أجل هذا نجح جمال فىعلاقاته بالنساء.

لا يحسب عوده فى الطوال ولا فى القصار، بل هو متوسط القامة، خفيف الحركة، أبيض، أصفــر، يخيل إليك حين تلقاه فى الصباح أنه سهر كثيرًا، عيناه صغيرتان عميقتان، تثقبان كما يثقب المخراز

ليس فى لونهما العســلى خوف ولا قلق، ويتميز وجهه الريان بشــارب أصفر، حديث السن، مرسوم مسبســب، كأنه مصنوع من الشمع.

كان لا يتصــل بمجموعنا إلا قليلًا، فاتهمــه بعضنا بالكبرياء، واتهمه بعضنا بأنه زير النســاء. وكنت أنا الشــخص الوحيد الذى يــرى فضائله، غير متيح للغيرة ولا للحقد فرصة تعمينى فيها عن مزاياه.

كان يعجبنى حديثه، وكان يعجبهم وإن كانوا لا يعترفون.

وكانت حكاياته كوجه المرأة الذى لا يعرى من المســاحيق. نعلم أنه زائف، ومع ذلك... نعجب به!!

لقد أوقف الســت الناظرة عند حدها فى الأســبوع الماضى، لأنها

فرحة بشبابها وسلطانها، والحرارة التى فى طبعه لا تطيق هذا. ويقسم. ونعلم أنه كاذب، ونصدق!!

وأحرج المفتش أمام التلميذات حتى ضحكت إحدى الجالسات فى الركن، ومع ذلك كان تقريره من درجة (جيد جدا). ويقسم. ونعلم أنه كاذب... ونصدق!!

ويناوشه حمودة أفندى بنكتة، فنضحك. ويهز هو كتفيه فى عدم اكتراث، ثم يستأذن. فيقول له أحد الغيورين:

– بدرى!!

– عندى ميعاد!!

وينصرف فى حركة رياضية.

***

وكان العام المدرسى قائمًا على قدم وساق ونحن مجتمعون فى حجرة الناظر لنعرض عليه أسئلة (امتحان الفترة)، وكان ذلك وقت الظهر، والحوش الكبير يصخب بضجيج التلاميذ ولعبهم. وكانت أصواتهم تطغى على نقاشنا فى بعض الأحيان، فيستعيذ الناظر بالله ويعلق حمودة على ذلك بصوت هامس: «ليس فى حوش المدارس الأميرية مثل هذا الضجيج» ليغيظ إخواننا ممن انحصرت أمانيهم فى أن يكونوا مدرسين بالأميرى. ثم يحملق حمودة بين حين وحين إلى السيجارة التى أهملها الناظر وتركها تحترق وحدها، ثم يلقى

على بعضنا نظرة فيها حسـرة كأنه يقول: «ياخسارة» فتجرى على أفواهنا بسمات نلتمس لها سببًا ونحن نتكلم مع الناظر.

وما كاد اجتماعنا ينفض باب الناظر فيخرج منه بعض إخواننا، حتى ينفلـت إلى الداخل فجأة ضابط المدرسـة، وفى يمينه تلميذ، وفى يسـاره تلميذ آخر، وتحت إبطه عصا قصيرة ودلائل المشـكلة تبدو على وجـه الثلاثة. كلا التلميذين باكيان والضابط غاضب وفى يده قلم حـبر يتنازعه التلميذان، ويؤيد كل منهما دعواه بالقسـم والدموع ونظرات الخوف والضابط حائر فيما بينهما.

ولم يـترك حموده أفندى الموضـوع دون أن يعلق عليه قائلا: "إن تلاميذ المدارس الأميرية لا توجد بينهم مثل هذه المشاكل... أهلى يا أفندم!!" وضحكنا وسمعها الناظر.. وضحك واغتاظ المدرس المقصود . وانصرف الأخوان وهممت أن أنصرف معهم، لكن الناظر استوقفنى بقوله: بل ابق معنا قليلا أنت يا عبده أفندى حتى يصدر الحكم.

ولم يصدر الحكم فى ذلك اليوم لأن أدلة الطرفين كانت متعادلة، فبات القلم فى مكتب الناظر حتى اليوم التالى ليقدم كل من الطرفين أدلة جديدة.

وانصرفوا وبقينا وحدنا... أنا والناظر.

ورأيت فى عينيـه الطيبتين الصادقتين آثـار كلام. كانت تبدو واضحة فى النداوة التى تمتازان بها كأنها بقية دمع. وهز إلىَّ رأسه المستطيل المحلوق (بنمرة واحدة) وقال لى:

– عاوزك يا عبده أفندى.

– تحت أمرك يا حضرة الناظر.

– أقفل الباب.

ووجف قلبى وأنا أفعل، وتبادر الشر إلى خاطرى فى هذه اللحظة كما يحدث لكل الناس. وجلست على الكرسى وأنا أبلع ريقى.

ولم يستأنف كلامه بسرعة أو خيل إلى ذلك، كما خيل إلى أن ضجيج التلاميذ فى الخارج قد أخذ يخبو حتى كأنهم دخلوا الفصول. وأخيرًا، سمعته يتكلم:

– هل علمت بما حدث؟

– لا!! طبعا.

– احم... احم... (وأخرج المنديل من جيبه... ثم أعاده إليه بعد لحظة)... إذن فأنت لم تعلم.

– بماذا يا حضرة الناظر.

– بما حدث فى المدرسة؟

– عندنا مدارس كثيرة...

– لا... لا... أقصد مدرسة البنات.

– هل لى علاقة بما حدث؟!

فاحمر وجهه الأحمر ومال نحوى حتى قرب ذقنه من نشافة المكتب الذى يفصل بيننا وقال، وكأنه يزجرنى:

– ليس هذا قصدى يا أجهل الناس بالدنيا. وإذا حكيت لك ما

حدث، فذلك لأبرهن لك على أننا فى مدرسة البنين نمشى على الصراط نظافًا ونحافظ على ثيابنا. (فتنهدت بارتياح).

– الحمد لله!!

– أما هناك.. فاسمع يا سيدى:

عرض على منذ يومين مدير المدرسة خطابًا مجهولاً وصل إليه بعنوان بيته مكتوبًا بخط ردىء دقيق (ومثل الرداءة بتقلص وجهه ومثل الدقة بإشارة من سبابته وإبهامه) لا يستطيع قارئه أن يعرف أهو خط رجل أو امرأة. ويتهم كاتب الخطاب جمال أفندى المدرس بمدارس البنات بسوء السلوك عامة.. وبسوء السلوك خاصة، مع تلميذة لا تتناسب سنها الكبيرة مع الفرقة الدراسية التى قيدت فيها. لم يذكر اسمها طبعا، وإنما عينها بالوصف حين قال عنها: إنها أكبر تلميذة فى المدرسة!! فهمست فى تردد:

– عطيات؟!

– عطيات؟!

ومد الحروف وهز رأسه كأنه يؤمن على ما أقول!!

* * *

٢

لاحظتهـــا بعد ذلك كأننى رأيتها للمرة الأولى!! وكنت جالسًـــا عصر ذلك اليوم على قهوة الكوكب، وكانت راجعة إلى البيت وســط ثلاث بنات، لمســتهن الأنوثة منذ عهد قريب، فحنت أجسامهن. وكانــت أطولهن وأجملهن وأعلاهن صوتًا، وأخفهن حركة وروحًا، وربما صح أن أقول: وأكثرهن طيشًا.

ومررن على مقربة منى ولم يشعرن بى لأننى كنت خلف الزجاج وثوبها المدرسى الشتوى الأزرق بحزام مربوط من الوراء يضغط على خصرها بشدة. كان فوق فستانها كأنه جبة لبست بالمقلوب، فتحتها إلى الوراء... قصيرة تلمس الركبة.

وكانت أشــبه بذكر الأوز بين القطيع العائــد من البركة. تتكلم وتلغــط وتضحك وتقاطع وتشــير فى وقت واحد. وهــن من حولها يلتمسن منها الإنصات، أو ينصتن لما تقول. وخصلات شعرها البنى التى كأنها مقصوصة من ذنب حصان كانت تداعبها نســمة خفيفة. والســاقان كانت طويلتــين عاريتين أكثر من اللــزوم، كأن الملابس قصرت عليها، لكنهما كانتا ظاهرتى البياض.

وانحرفن إلى الشارع المجاور وغبن عن بصرى.

وجعلــت أتأمل الواقفــين على محطة الــترام القريبة لحظة من

الزمــن، وأستشــف خصالهم من خــلال ما يفعلــون. ولكن عطيات وثبت إلى ذهنى مرة جديدة، فأوقفتها بجانب جمال أفندى وعقدت بينهما نجوى فى مكان هادئ!!

ورأيتهما فى الموقف الغرامى جميلين منســجمين، فقلت: (الله عليهم)!

وجهــه المســتطيل ينظر من فــوق إلى وجهها المســتدير المرفوع إليه، وهما على النيل – مثلا – فى الظلام، واقفان، وشجرة وارفة تحجب عنهما ضوء مصباح الشــارع، والنوافذ فى البيوت المواجهة مقفلة كلها. وعيناه العســليتان تحدقان فــى عينيها الخضراوين، فيرى توهجهما كما ترى فســفور الساعة. ويطول عنقها من الأمام أكثر من الواقع لأنها رفعت وجهها، وخصلات الشــعر تنحى على الجبين بين فترة وفترة. والمهم. أهم من هذا كله، الكلام. فمه تحت الشــارب المسبسب يرمى بأكذوبة بعد أكذوبة...من قصصه المعمولة التى تعجبنا مع علمنا بحقيقتها. ونبرة صوته التى يهزها بإرادته كأنما جرت فى بدنه رعشــة. والتى بين يديه فتاة تزاول التجربة الأولى، على ما أظن، فى حياتها العاطفية، يملؤها الحرص على أن تنجح فى التجربة الأولى كما يملأ كل الناس. والحرص يعمى ويصم لأنه حب!!... فلا تســتطيع عطيــات أن ترى النفاق فى قاع عينيه الثاقبتين، ولا أن تضبط الكذب فى ثنايا كلامه المزوق، ولا أن تميز بين قبلة وقبلة!!

ما هـذا الكلام؟! ومن منـا يميز بين قبلة وقبلـة!! إن اللائى يحترفـن تقبيـل الرجال، فقد يرسـبن فى هذا الامتحان الشـاق. والمهم!!

إن حرارة كبرى تكن فى عمر سـتة عشـر عامًا بلغتها عطيات، تناجـى فى ظلمة الليل جميلًا كذابًا فى الخامسـة والعشـرين. ثم تصدر منها شـهقة، لأنها رأت شبحا بعيدًا، أو لأنها تأخرت عن البيت، وربما سألوا عنها صاحبتها. أو لأنها خافت ممن تحبه. ثم تضغـط كفه بين كفيها بقوة تناسـب طراوتها، وتودعه بقولها (إلى اللقاء)، ثـم تجرى بخفة العصفور راجعـة إلى البيت، وتدعه فى مكانه، فلا يصحبها خوف الطوارئ. وتخشخش من فوق الشجرة، ويلقى المصباح على وجهه شعاعًا ثم يسترده.. ما أجملها!!... (الله عليهم!)...

وأفقت علـى قول حمودة: فيم تفكـر؟... وربك مدبر! وضحك بفمه الواسع فبدت أسـنانه الصدئة. وسحب الكرسى ببطء وجلس إلى جوارى وبين أصبعيه بقية سيجارة.

ولما انقضت أوهامى قلت له: لا شـىء... كنت أحسـب المرتب. وطلبت له فنجالًا من القهوة.

قال وهو يرتشف الرشفة الأولى: هل علمت بالحكاية الطريفة؟

– أى حكاية؟

– حكاية الخطابات المجهولة. فقلت بحسن نية:

– وهل قصها عليك أنت كذلك؟!

– من هو؟

– من هو؟!... الناظر طبعًا.

فضحك وهو يطفئ بقية السيجارة فى بقية القهوة. وقال:

– لا. بل الناظرة هى التى قصتها على.

– غريب. قال حمودة:

– إن الخطاب مكتوب بخط فتاة ويبدو أنها مدرسة حساب (هأ. هأ. هأ) أتدرى لماذا؟ لأن هناك كلمات تخرج من الناس دائمًا بحكم مهنهم، وقد ورد فى الخطاب عدة كلمات من هذا النوع «هناك أغلاط بسيطة يجوز للمدرسة أن تسكت عنها، أما الأغلاط المركبة...» وقد استنتجت الناظرة حين وصل إليها الخطاب على بيتها... فقاطعته:

– على بيتها؟!

– على بيتها.

– إذن هناك أكثر من خطاب، وقصصت عليه ما أعرف ثم ضحكنا، وتركته يستطرد:

– استنتجت الناظرة أن كل هذا بتدبير من الآنسة فاطمة، مدرسة الحساب.

– وهل تحب جمال أفندى؟!

– تحب أى رجل يريد أن يتزوج، وقد أخذت على عاتقها أن تهاجم أوكار الغرام فى كل مكان لوجه الله تعالى، رعاية للأخلاق.

واستطرد حمودة بأسلوبه الساخر ولهجته المتراخية، يحكى من قصص الآنسة فاطمة ما صنعته الحقائق، أو نسجته الأكاذيب، من أنها ضيقت مرة على حبيبين حديثى السن من أبناء الجيران حولها، فأصابها من أم الفتاة ما أصاب القرد من النجار. لأن أم الفتاة كانت ترى أن الحب أقصر طريق إلى الزواج!!

ثم انتقل حديثنا إلى صميم الموضوع، فتناولها من جديد شخصية الحبيبية. وأكد كل منا لصاحبه أن هذه الإشاعات لا بد أن تصنع شيئا، لأن الإشاعة الكاذبة قد تثير العناد، والإشاعة الصحيحة قد تدعم الواقع، ثم قال فى شبه دعابة: ومن يدرينا أن عطيات نفسها هى التى صنعت كل هذا، لتجعل من نفسها زوجة لجمال فى أقرب وقت.

قلت لحمودة: وهل هذا معقول؟!... إنها لا تزال صغيرة!!

– أنت لا تعرف أسرتها يا عبده. كل بنات هذه الأسرة مرتفعات الحرارة، يعشن فى حمى دائمة، ويغازلن فى سن باكرة. ويتزوج معظمهن عقب حادثة غرامية، أو كارثة حب. هل رأيت أمها؟

– لا...

– سأجعلك تراها إذن عندما تأتى إلى المدرسة لشأن من الشئون.

– مالها؟؟

– ترى ماضيها الزاهر على حاضرها الذابل. وتحدثك عيناها اللتان لم تنطفئا تمامًا بأشياء، غريبة غريبة... هل تسمع عن

الغموض المثير... الذى يشبه الجو الصناعى... الجو الذى يخلقه السحرة والنصابون والمشعوذون، ليلهموك فكرة معينة؟ هذا الغموض فى عينى أمها. وعطيات فرع من هذه الشجرة.

– لكنها سقطت تحت عجلات (رمسيس). أول من ركب العربة الحربية...

أريد أن أقول: إنها ليست فى دهاء جمال.

– اعتقد ذلك، ولكن معارك الحب أغرب من معارك الحرب، قد لا تدل مقدمتها على نهايتها.

– مثلا...

– مثلا...؟ ... مثلا، أنا؟؟ أستطيع أن أحلف لك بالطلاق، أننى أحببت زوجتى بلا قصد، وتزوجتها بلا قصد، وأن أولادى الكثيرين الذين ينهشون شبابى أولا بأول، جاءوا أيضا بلا قصد!!

– لا تخرج عن الموضوع.

– (جيد جدا)!! لن أخرج عن الموضوع، حين ترتمى المرأة باسم الزواج فى أحضان رجل كان لها به علاقة قبل الزواج، تصبح «مشروعية» الحوادث بينهما ذات «أثر رجعى»، بمعنى أن أخطاءهم الماضية تخف فى ميزان «الحكم»، ما داما قد تزوجا. ولذلك ترانى لا أرتاع إذا نما إلى علم أحد من الناس، حادث من تلك التى وقعت بينى وبين امرأتى قبل الزواج. وأنا بالتالى – وبالقياس على ما قلت – لا أجد عارًا فى أن أقص على صديق لى بعض تفاهات الهوى

بينـــى وبين الفتـــاة التى أصبحت زوجتى. ذات الشـــريط الحريرى الأحمر المعقود على الشـــعر، التى أصبحـــت أما مترهلة الصدر، من كثرة المص يا عزيزى!!

واحمـــر وجهى مـــن عدم التحـــرز، وعجبت لاختـــلاف تقدير النـــاس، ثم أدركت فى التـــو حين وقعت عينى علـــى امرأة عارية الصدر تمر فى الشارع، أن مصمم الأزياء هذا، قد أدخل فى حسابه اختلاف تقدير الناس، فأعطى العيون المتطلعة شيئا مما فتشت عنه عند فتحة الصدر.

واســـتدار تفكيرى بسرعة، فاتصل من جديد بأفكار زميلى الذى كان يقول لى:

– كانت تسكن حارة مسدودة أيام كنا حبيبين...

– يا ليتها ما طلعت منها!! وضحكنا.

– كان ذلك خيرًا. يا ليت!

– ولها!!

– وكانـــت فى بيت أبيها، وكنت فى بيـــت أمى!! يفصل بينى وبينها مســـير نصف ســـاعة على القدم. وكنا نتفـــق أحيانا على أن نلتقى فى صمت، خلسة، فى بيتها. وكانت تسهر لتحل واجباتها المدرســـية، حتى تســـكن الحارة وتنطفـــئ الأنوار. وتســـمع حبيبة الأمس، وزوجة اليوم، صوتًا صغيرًا أشـــبه بصوت طفل ينادى على بائع الزبادى عند باب الحـــارة على بعد، فلا يجيبه بائع، عندئذ

تتحايل حتى تنزل إلى الحوش، وكان صغيرًا مظلمًا، يستطيع الحبيبان الصغيران أن ينزويا فى أحد أركانه، وهناك نقف لحظة من الزمن، لا نتكلم إلا بقدر الضرورة.

– ومشت الحال على هذا المنوال.

– وليس كثيرًا. لأننى ما كنت أنادى على بائع الزبادى، إلا إذا تأكدت أولًا من أنه ليس هناك رأس رجل ولا امرأة تطل من شباك. وربما ناديت، ثم لا ينزل إلى أحد، لأن ظروف المنزل لا تسمح فى هذه الليلة.

– أما كنتما تخافان؟!

– ألم تجرب مثل هذه المواقف؟!

– أتريد الحقيقة؟

– بلا شك.

– لم أجربها قط. والمستقبل بيد الله.

– يستطيع الناس أن ينسجوا حول أنفسهم جوا من الطمأنينة، لحظة من الزمن، والقنابل تتفجر فى مكان. كان بعض الأبواب يصر فى فتحه أو إغلاقه ونحن مستغرقان، ومع ذلك كان كل منا مقتنعًا فى قرارة نفسه، بأن قطة هى التى حركته. وقد يعبر أحد السكان الحوش ونحن ملتصقان بالحائط، ويعرج على مدخل السلم فيصعد دون أن يرانا.

وبدافع من الخوف (وهى غريزة أيضا!!)، نشتبك فى قبلة

أخيرة قبل أن أخرج أنا لتصعد هى، فإذا بحلقة النهاية تستحيل إلى بداية لجديد. وننسى الحظر الذى كان همنا أن ننجو منه منذ دقيقة، ويرفرف علينا الأمان. – ومشت الحال على هذا المنوال.

– أنت ريفى طبعا.

– طبعا. وما دخل هذا فى ذاك؟!

– من كفر البلاص؟

– لا، يا مغفل.

– إذن فأنت لا تعرف البلاص.

– أعرفه كما تعرفه أنت، وأنت من مواليد القاهرة.

– ما كل مرة تسلم الجرة. فقلت بصوت ممطوط:

– يا سلام!!

– وهذا هو الذى حدث. هات سيجارة.

– ليس معى سجاير.

– إذن فلن يحلو الحديث!!

– لماذا؟!

– الجو. الجو يا أستاذ. يا أجهل الناس بشئون الناس. لا تفصل الجو عن الحادثة، حتى لا ترى بين يديك مخلوقًا لا روح فيه. خل حديث الجو على الواسع إلى فرصة أخرى، (حرك حاجبيه، وضحك بفمه الواسع فبدت أسنانه الصدئة). ولكن..

– لكن... ماذا؟!

– الحلقة التى سأحدثك بها الآن، تريد سحابًا معقودًا من الدخان، لا تفكر فى الشيشة فثمنها ثقيل. سيجارة تشعل من سيجارة، وتزحف الحوادث تحت ستار من الدخان، فتدخل إلى النفس سحرًا يا مغفل!!

– هذه هى العلبة.

– حسن. كريم. هكذا يقول عنك كل الناس. كريم. من بيتك ولا شك.

حتى كانت ليلة... فهززت رأسى وأنا أقول مثله:

– حتى كانت ليلة!! فاستطرد يحكى:

– وناديت على بائع الزبادى عند مدخل الحارة. ولم أكن أعلم أن ناسًا يراقبوننى من خلال الشيش، وتعللت ذات الشريط الحريرى الأحمر ليلتئذ بأنها ستدخل الحمام. وكان الحمام مجهزًا حقيقة. ثم دخلت وتسللت منه وأقفلته (على الفاضى)، وتركت وابور الجاز يئز. ثم نزلت إلى الحوش!!

وبدأنا نهمس فى الظلام، ثم خفت همسنا!!

وفجأة، خرج مصباح من الحجرة القريبة التى كانت غارقة فى الصمت والظلمة منذ لحظة، لمع فجأة كأنه شهاب. وكان فى يد امرأة ما لبثت أن صخبت وسبت ولعنت. وأخذت. وتهاوت الفتاة واقعة على الأرض، ثم نهضت متعلقة بملابسى. وألهمت شيئًا فى هذه الوهلة. خمن ماذا فعلت؟

فهززت رأسى فى ارتباك. فعلق قائلا:

– لخمة!!

– قل أنت.

– نفخت مصباحها فانطفأ، واستدرت نحو الباب لأركض إلى الحارة.

– ونجحت الخطة؟

– كادت تنجح، لولا أن عوامل خارجة عن "التكتيك" تدخلت فى المعركة.

أمسكت المرأة بتلابيبىوصرخت. سمعت أم حبيبتى الصرخة، فاستيقظت من نومها، لأنها ظنت أن حادثة جرت لبنتها فى الحمام. ذهبت إلى هناك وضربت بابه برجلها فى غير وعى، فلم تجد إلا الصفيحة والوابور والليفة والصابونة، وقبل أن تفيق، رأت بنتها داخلة من باب الشقة. وكانت فضيحة..!!

– خزاك الله!!

ألم نتفق؟! نحن متفقان قبل كل شىء يا صديقى الجاهل، على أنه حيث ترتمى المرأة باسم الزواج فى أحضان رجل كان له بها علاقة قبل الزواج، فإن «مشروعية» الحوادث بينهما تصبح ذات «أثر رجعى»، بمعنى أن أخطاءهما الماضية تخف فى ميزان «الحكم»، ما داما قد تزوجا.

وضحك بفمه الواسع فبانت أسنانه الصدئة، وانصرف بخطًا

طويلة، ولم ينس أن يقول لى آخر الأمر قبل أن يفارقنى:
– السلام عليكم... خيبة الله عليك!!

* * *

ولم تتبدل الحال كثيرًا خلال الأشهر التالية.

لا بالنسبة إلى، ولا بالنسبة إلى زملائى، ولا بالنسبة إلى عطيات وجمال بعد حكاية الخطابات المجهولة. لأن المرونة كثيرًا ما تخدم أصحابها، وجمال أفندى يتمتع بمرونة الحديد والصلب!! فليتنى كنت مثله!!

ومنذ أواسط شهر أبريل، والمدارس تستعد لحفلتها السنوية. وهذه فكرة المدير. وهو ينشد من ورائها الدعاية والترفيه وترقية الفن!! وكانوا يحشدون لهذا العمل كل «طاقة» و«مجهود» فى المدرسة ويطلقون عليها اسم «مواهب»، وقد يسمونها «عبقريات». التلاميذ والتلميذات والمدرسون والمدرسات، مجندون جميعا لتنجح حفلة آخر السنة.

وكان لجمال أفندى اليد الطولى فيما يساهم به فى هذه المناسبة. وهو بطبعه ميال للحركة، ومن الذين يحبون أن يلفتوا الناس إلى أعمالهم ولو كانت تافهة، فضلا على أنه كان له فى التمثيل سابقة حديثة أيام كان طالبا، وكان مولعا ببعض الممثلين المشهورين فى ذلك الوقت، حتى أنه كان يحاكيه كلما داعب صديقًا له. وقد قابل المدير

فــى منزله قبل هذه الحركة، وألقى بين يديه قطعة تمثيلية، حتى إن الرجل على وقاره، دعا أولاده ليشهدوا هذا الممثل المتجول!!

كان جمال لا يعرف الحياء، وربما كان هذا من أخص مؤهلاته.

وانقضت ثلاثة أسابيع فى الاســتعداد والتنظيم. كان يأتى فيها إلى المدرســة فى وقت باكر، وينصــرف فى وقت متأخر، وكثيرًا ما يعود فى المساء.

كان يدرب التلميذات وبعض المدرسات والتلاميذ الذين سيشتركون فى التمثيل، أما الموسيقا والألعاب، فقد كان لها شأن آخر.

وفــى أصيل معطر من أحــد أيام مايو، فى يــوم ربيعى جميل، كانت مدارس النصر مجلوة كالعروسة الفقيرة. كان بناؤها قديمًا لا رونق له، لكن المدير بذل جهده فى أن يطلى حيطانها بالجير، وإن تغلب عليه فى بعض أماكنها نشع الجدران. وهناك جزء من السور لم يكن تم بناؤه، فصفحوه بالصاج القديم، ثم طلوه بالجير. وفرشت الأحواش بالرمل، ونظف الفراش الشارع أمام المدرسة، وعلقت على الأبواب رايات. وجعل من مناضد الطعام خشــبة مســرح، وأجرت كراسى وملابس وســتارة. وقبل بدء الاحتفال بساعة، كان البيانو يرسل ألحانه من غرفة داخلية.

أمــا جمال أفندى، فقد كنــت تلقاه فى كل مــكان يتواثب كأنه النحلــة فى بنطلون أبيــض، وقميص من البوبلــين مفتوح من على الصدر. وكان مهندمًا مرهقًا شــاحبًا فرحًا كأنه فى شــهر العســل.

وكنا جميعًا ننظر إليه بشـيء من الحقد والغـيرة. أما أنا، فكانت غيرتى منه تظهر فى صورة غير مألوفة، هى الثناء والمديح والمبالغة فى الإشـادة بما يفعل وما يقول، لأتيح لغيرى من المدرسـين فرصة الهجوم عليه، فأروى بذلك ظمأ نفسى من طريق خلفى.

وعلق اسمه بفم المهتمين بالحفلة من ذوى الشأن. فكان كل منهم لا يسأل إلا عن جمال.

وانعقـد فى سمـاء الحى غبـار خفيف، يشـوبه ضجيج أطفال ونسـوة، ممن يقصدون إلى المدرسة. وصفق الحاضرون جميعًا، حين دخل مديـر المدارس، خلف زائرين كبيريـن، أحدهما هو مراقب التعليم الحر، والثانى مراقب المسـتخدمين فـى المعارف، وهمس بعض الجالسين فى ثقة قائلا: «خلاص.. نجحت الحفلة»!!

وارتفع صوت من زاوية مجهولة يقول «هس» فشمل السكون إلا من بكاء طفـل على ذراعىأمه ما لبث أن انقطع. واتجهنا كلنا نحو المسـرح بأعين وقلوب، وسمعنا الدقات التقليدية التى تسـبق رفع السـتارة، ثم تحركت لتنكشـف عن مشـهد من مسرحية قصيرة، تصـف ما تعانيـه أمثال هذه المـدارس من عنت، وضيـق موارد، وصعوبات اجتماعية تقف فى سـبيلها نحو التقدم. وما تؤديه بعد ذلك للناس من خدمات (هذا ما أرادوا أن يقولوا).

وكان الأثـاث يمثل غرفة ناظر مدرسـة، وقد جلس الناظر على المكتب...

وتهامس التلاميذ والمدرسون وبعض أولياء الأمور تو انكشاف المنظر: «الله!!... الله!! من هذا؟!.. هو بعينه والله العظيم».

كان يلبس طربوشا طويلًا داكن الحمرة، وحلة واسعة تبدو من تحت ياقتها باقة بيضاء منشاة طويلة، فيها رباط عنق أسود، وبعد ذلك منظار سميك، وله شارب تركى مبروم جرى فيه الشيب. وعلى المكتب أوراق كثيرة وبعض كتب وكراسات.

ويدق الناظر جرسًا أمامه بتأفف وقلق، فيدخل عليه الفراش، وهو تلميذ يلبس جلبابًا، عرفه إخوانه وهللوا له. فانبعثت كلمة (هس) من عدة أركان، وساد الصمت، وطلب الناظر كوبًا من الماء، ودخل به الفراش بعد برهة وهو يعلن حضور أحد أولياء الأمور، وفى يمينه بنت صغيرة يريد أن يلحقها بالمدرسة، ويطلبه الناظر فى اهتمام، وينصرف الفراش من أحد جوانب المسرح، ويدخل من الجانب الثانى رجل ضخم الجثة، طويل، ذو كرش عرفوا فيه كاتب المدرسة، عليه جلباب كحلى من الصوف، وقد تعمم بكوفية من الحرير فوق قلنسوته، وفى يده بنية بنت ست سنوات، فى عينيها الخوف من المجهول.

وتبدأ مساومة غريبة مضحكة، بين ولى الأمر تاجر السمك، وبين الناظر حول النفقات المدرسية التى ستدفع لبنته التلميذة. وبعد جهد طويل تنتهى المفاوضات بالفشل، ويهم ولى الأمر أن ينصرف وبنته فى يده، لأن محور الاختلاف كان ريالًا واحدًا فى السنة. ويستدير

السماك وهو يقول للناظر، بصوت غليظ مخنوق معا: «معلش... تبيع راجل بريال... معلش.. نروح لغيرك»...

ويضج الجمع بالضحك. ويميل مدير المدارس على أذن مراقب التعليم الحر. ويهمس ناظر البنين فى أذن مراقب المستخدمين. وتضحك الناظرة فى وجه إحدى المفتشات، ويرتفع صوت فى آخر الحوش ليقول: «أعد»، فتعاكسه من كل مكان كلمة «هس».

وهنا يستنجد ناظر المدرسة على المسرح بالفراش، وهو يستوقف ولى الأمر ويقول فى ضجر وألم وأمل، كمن يريد أن ينقذ الموقف: أنا غير قادر على التفاهم مع هذا الرجل. ابعث إلينا بالآنسة سميرة المدرسة، فربما كانت أكثر قدرة منى على التفاهم...

ويتحرك ولى الأمر عائـًدا إلى الداخل، فتزقزق من تحت قدميه أظهر المناضد التى تكون المسرح، فيقول أحد الجالسين من النظارة: «يارب يا ساتر»، ويكتم القريبون من الخشبة ضحكة. ثم تدخل من الباب الجانبى الآنسة سميرة المدرسة فى فستان أسود، كأنها تلبس الحداد، فى يدها حقيبة من الجلد منفوخة بما فيها من أعمال مدرسية، وعلى عينيها منظار أنيق، وعلى ثوبها غبار أبيض من السبورة، فيصفق الحاضرون. وتسرى همسات: «عطيات؟!... نعم... عطيات؟!... ذلك واضح». إذن فمن هو الذى يقوم بدور الناظر على المسرح؟... جمال أفندى؟!... نعم... جمال أفندى.. لقد أخفاه (الماكياج) لكن صوته لا يخفى...

قلت فى نفسى شيئًا، قاله المدرسون ولا شك: «هما دائمًا معًا».
وبدأ الحوار من جديد، والناظر ساكت مكب على أوراق يشطب فيها، الحوار بين عطيات وولى الأمر. استأنف من النقطة التى توقف عندها. من عند الريال تمامًا. فإذا بعطيات فى ثياب الآنسة سميرة، تقول للرجل الضخم، بصوتها المتدفق الحار اللين الأخاذ: «ريال واحد... تختلفون عليه... سأقسمه على شهور السنة، وأدفع للبنية العزيزة كل شهر خمسة عشر مليمًا من جيبى... من أجل جمالها».

وربتت على خدها، ثم مالت عليها فقبلتها، حتى تراجع الفستان عن ساقها البيضاء.

وكان الناظر على المسرح لا يزال مكبا على الأوراق ينظر بزاوية عينه ويشطب ويشطب، والطفلة الصغيرة تبتسم . أما الرجل البدين، فقد بدا عليه الاقتناع، وأخذت المشكلة فى ذهنه صورة أخرى، وانصرف همه إلى التطلع إلى المدرسة الجميلة بعينين نهمتين، حتى إنه ترك الطفلة من يديه، وعقد ذراعيه على صدره، وارتخت شفته السفلى تحت فمه الكبير فى موقف كوميدى، فبدا كأنه «مسطول»، وانسجم المنظر مع الرجل عدة ثوان ارتفع فيها الضحك، والناظر على المسرح مبالغ فى الانكباب على العمل، كأنه لا يرى ولا يسمع.ثم انتهى الموقف بأن قال الرجل البدين للآنسة سميرة: «يا سلام يا ستى... ريال؟! ريال؟! اطلبى رقبتى».

وشد على عنق نفسه كأنه يريد أن يموت...

٣

وتوقعنا بعد نجاح الحفلة خيرًا كثيرًا لمدارس النصر، فى الموسم القادم!!

ولم يعــد الغيورون منا يؤملون فــى أذى الخطابات المجهولة، التى كتبت ضد جمال أفندى، فقد داســت مواهبه كل هذه الأشياء، ونفخها بشــجاعة، فتطايرت كما تتطاير رغوة العرقسوس من فوق وجه القدح.

وانشــغلنا فــى الامتحان والتصحيــح وإعلان النتائــج. وأخذ تردد التلاميذ على أبواب المدارس يقل يومًا بعد يومًا، حتى أقفرت الأحواش، وعلا الغبــار أدراج التلاميذ، وأقفلت المــدارس أبوابها لمقدم الصيف، وأخذت كل بلدة تجذب نحوها أبناءها من المقيمين فىالقاهرة...

لكننى لم أسافر.

لم يكن فى قريتى شــىء يشــغلنى، أو يدعونى إلى السفر، فضلًا على أننى بطىء الحركة، ركين بطبعى. وأرسلت لأمى خطابًا أطمئن فيه على صحتها، وعلى حال أختى: زينب وتوحيدة، وعن الجديد فى حياة هؤلاء الثلاث، فجاءنى الرد بعد أسبوعين، خطابًا لا طعم له، عامرًا بالعبارات المحفوظة، مكتوب بيد أحد الأقارب.

وكثــير منا يفضــل الإقامة فى المدينة مدة الصيف، لما عســى أن

يصيـــده من رزق. درس خصوصى، أو درســـان لتلميذ أو طالب، من الذين يعثر بهم حظهم فى الدور الأول.

لكننـــى لم أكن كثـــير الصلات بالنـــاس، ولا ماهـــرًا فى تمويه الأمور، لذا كنت أقل إخوانى حظًا فى تصيد هذا النوع من الرزق.

أما شقتى التى أسكنها، والتى كنت ألزمها معظم ساعات النهار فـــى إجـــازة الصيف، فقد كانت شـــبيهة بى: فيها أشـــياء لا لزوم لها...حجرتان شـــغلت إحداهما بأثاثى، وتركت الأخرى يشغلها الغبـــار. وفيها هدوء، لأنها فى حى من الأحياء (الجانبية) إن صح هذا التعبير، زحف على خراب المدينة، فاختط نفســـه بيوتًا. ففى الحارة التى أســـكنها كنت ترى حياة جديـــدة، وموتًا قديمًا. على اليمين صف من المســـاكن، وعلى اليســـار ســـور مـــن البناء فى طول قامـــة الرجل، يحيط بقطعة أرض كانت فـــى الأصل مدفنًا لإحدى الجاليات الأجنبية فى مصر، ثم تقادم عليها العهد، فنسى الموتى، فلم يعودوا يذكرون. وانطمســـت الشواهد، وتكسر بعضها، ولم يبق فى المكان مـــا تتجدد فيه الحياة، إلا الشـــجر المتفرق المخضر الذى يبدد وحشة المكان.

وكنت أرى المدينة، من خلال الشـــباك، عبر هذا الفضاء. وأشهد فى النهار تسلق الصبيان للسور، والثغرة التى نجحوا فى فتحها، باستعمال الحديد والخشب والحجارة. ثم اتسعت الثغرة على مرور الزمن.

وكنــت أبعثر وقتى الطويل الواســع فى أعمــال تأتى كما اتفق. أجلس علــى القهوة، أو أزور صديقًا، أو أنــام فى وقت اليقظة، أو اقــرأ. لكن ماذا كنت اقرأ؟ أشــياء تافهة لا ترتبــط بثقافة معينة، وكتبا ستعمل منوما، أمسك أحدهما وأنا مستلق على ظهرى، حتى أستغرق فى النوم.

ولم أعــد أرى حمودة لأنه ســافر، ولا جمال أفندى لأننى لا أعلم عنه خبرًا، ولم تعد عطيات تمر فى الشــارع وسط اثنتين أو ثلاث من صديقاتها، وقد ظهر عليهن فى كل شىء، حتى فى الطول. وكان طعم (الوقت) فى حياتى فى هذه الفترة، أشبه بطعم (الوقت) الذى يعقب نومًا أطول من المعتاد، وفيه فتور ليس نومًا، وفيه انتباه ليس يقظة.

وعزمت على أن أســافر إلى القريــة عصر يوم من الأيام، ولكننى أجلتها لأول الشهر، وساعد على ذلك مجىء حمودة من بلده ليقبض مرتبه، ثم يعود. وأحسســت بوطأة الوقت تخف نوعًا حين وجدت من يشــاركنى تضييع أوقاتى. ثم ســافر وتركنى وحدى، وكان ذلك فى صباح يوم ذهبت فى عصره لزيارة أحد الأصدقاء.

كان صديقى يســكن الطبقة العليا من المنزل الذى أقصده. والمنزل مكون من أربع طبقات. وكنت وأنا أصعد السلم أحك قدمى فى حجر كل درجــة، لأحدث صوتًا مســموعًا أنبه به الســاكن إذا كان بابه مفتوحًا، إلى أن أحدًا فى الطريق، وكانت هذه العادة أيسر فى نظرى من الهتاف بكلمة «يا ساتر».

وقبل أن أصل إلى الدور الثالث، سمعت حديثًا على بسطة السلم. كان يبدو منه أن ناسًا يودعون ناسًا، وأن الطرفين كانا يتمنيان أن يطول بينهما الحديث، ولولا ضيق الوقت!! وحككت أقدامى فى الحجر ليسمع الواقفون رجالاً ونساء، ولكن الجلبة كانت أقوى من ذلك.

وخيل إلى بعد أن اقتربت، أننى أعرف أصواتا فى هذه الأصوات. ولم أر بدا من أن أقول «يا ساتر»، بعد أن استطاع الواقفون على البسطة أن يروا رأسى ووجهى على بعد عشر درجات. وارتفعت فى هذه اللحظة ضحكة شاب، وضحكة فتاة، كانتا مخلوطين تماما ليس بينهما فجوة، ثم ضحك بعض الباقين، ثم انفرد صوت الشاب يقول وكأنه يشجعنى:

«الله...؟! اتفضل يا أستاذ عبده. اتفضل يا أخى السكة فاضية...»، واستأنف ضحكه بخفة، وابتسم الباقون، وابتسمت ووجهى محمر، وفى نفسى انفعالات كثيرة، كان أميزها الغيرة.

كان جمال أفندى خارجا من شقة أهل عطيات، وكانت فى وداعه، هى بنفسها، لكن الراحة كانت كأنما منحتها نضرة وشبابًا ونماء. وكان معهما أمها ذات الضحكة العالية، الجسم الشاب والوجه المسن، وأخوها الذى لا يستطيع أن تفرق بين سنه وسن أخته، حتى لكأنهما توأم.

وصافحت هذا الحشد على بسطة السلم، وانبثقت عطيات بالضحك بشكل ذكرت به ضحكات الأطفال، حين يرون كبيرًا

يتزحلق فيقع على أرض الشـارع ! ! ووجهت الكلام لجمال أفندى، فقلت وأنا أصافحه :

– من زمان؟

– منذ يومين فقط، ومسافر غدا.

– هكذا بسرعة؟ فأجابه بلهجة لا يخفى مغزاها :

– حققنا أغراضنا، ولم يبق فى القاهرة إلا الحر.

– طبعا يا سيدى، فأنت من أهل الإسكندرية.

– تفضل عندنا يومين.

– أشكرك ! !

وسـلمت على الباقى سـلاما عاديا، وحملقت فـى وجه عطيات لأرى ما فيه، واسـتدرت لأضع قدمى علـى أول درجة توصلنى إلى الدور الرابع، فسألتنى عطيات عمن أقصد؟ ثم طلبت منى أن أتفضل فآخذ فنجان من القهوة أولا، قبل أن أزور صديقى، لكننى وعدتهم بأن أفعل وأنا نازل، إن ظل الوقت مناسبا.

وكنت أسمع، وأنا صاعد، وقع أقدام جمال وهو يهبط السلم.

* * *

وكان بابها مقفلا عند نزولى، بعد أن قضيت عند صديقى سـاعة مـن زمن، وتوقفـت خطواتى عنده قليلا وقلبـى يخفق، وخيل إلى أنه خفقـان عادى، لأننى بطىء لا تجتاحنـى العواطف. وتذكرت المظاهرة الودية التى ودع بها جمال منذ فترة، وأوجسـت خيفة أن

أضع نفسى فى كفة الميزان، فتنكشف رقة حالى وخفتى فيه. ووقفت أتأمل بطاقة أبيها المثبتة بالدبابيس على الخشب البنى. وسمعت أصواتًا فى الداخل من بينها صوت عطيات، ورفعت يدى لأدق على الباب، لكننى هبطت السلم فجأة فى طريقى إلى الخارج.

لم أقصد إلى قهوة الكوكب فى مساء هذا اليوم، بل حملت معى عشائى، سمكا وشيئا من الخيار المخلل والبلح الأمهات. وجلست آكل بشهية، ونظرى يسرح بين حين وحين إلى الفضاء المواجه الساكن المظلم.

واستطال الوقت، فأخذت أدور فى أرجاء الشقة، وأنظر من كل شباك، وأحملق فى كل ضوء، وأراقب كل شبح، وأتخيل وراء كل ستارة تسدل، وكل نور يطفأ، ضجعة لحبيبين!!

ودخلت المطبخ فأشعلت وابور الجاز، بعد أن لوثت يدى بهبابه، وعملت قدحا من الشاى، ثم حملته إلى حيث أجلس، وأخذت أشرب بلا شهية. وكانت صورة عطيات وجمال تملأ على الفضاء كله، حتى جعلتنى فى هذا المساء أسأل شبابى عن نصيبه فى الحب. أنا ابن الخامسة والعشرين.

لم يكن فى المدينة حب حتى الآن. كنت أتكلف حمل الصعاب لأبدو قويا، وأنا – فى صميم شعورى – أتمنى أن أستسلم للضعف الفطرى الذى يحيك لنا (التجارب) فى أوائل أعمارنا. ومن ذلك ضعفنا فى الحب.

وقمت فلبست ثيابى، وأقفلت باب الشقة، ونزلت وأنا لا أدرى إلى أين.

وكنت أهبط وأتحسس بحذر برجلى فى الظلام، درجة مكسورة أعرف مكانها من سلم البيت، وعقلى مشغول بذكرى حب سانج مارسته فى القرية.

لم يكن غصن واحد يهتز فى أشجار المدفن القديم، ساعة ألقيت عليه بصرى، عندما وصلت أرض الشارع. كانت القاهرة مكتومة الأنفاس فى ذلك الصيف، وكنت أنا فى هذه الليلة مكتوم النفس، ضجرا، متضايقا. وسرت أضرب فى أحد الشوارع الرئيسية متجها نحو النيل، حيث يهيم أناس كثيرون، وحيث يلوذ الأحباب ببعض الزوايا المظلمة...

«مرة واحدة أشرفت على القمة التى يصعد إليها كل حبيبين...!!».

كنت أقول هذا، وأنا أراقب الناس وهم يشتتون الليلة الحارة، على مقربة من الماء الذى بدا هو الآخر كأنه حران. وكان صخب باعة الكازوزة والجيلاتى واللب والسودانى على الشاطئ، يدخل فضوليا على أفكارى، فتتركنى كالمخدر الذى يهزه بعنف رجل ثقيل...

وكانت هذه المرة التى أشرفت فيها على قمة اللذة، هى التجربة اليتيمة التى كسبتها فى شبابى، مع حبيبتى القروية (حسنة)!! فى ليلة مولد، وأضواء مصابيح الجاز منتشرة فى فضاء الحقول التى خلت بحصاد القمح. وقد تكدست الفتيات فى جلابيبهن السود،

بعيـدًا عن منطقة الضوء. وكنا ندور فى النور على مقربة منهن، ثم ندلف نحوهن، ثم نعود نسمع همسًا غير واضح.

حتـى انسـربت فى الظلمـة وانسـربت وراءهـا، وتوغلنا فى الحقول.ولما تلاقينا، كان كل منا يرتجف، وأحسسنا ببرودة الشتاء ونحـن فى حر الصيـف، وخيل إلينا أن كل من فـى المولد يطاردنا بالعصى والحجارة، لكن ذلك لم يحل بيننا وبين أن نقدم على عمل. وغاب عـن سمعى ضجيج المولد، وترتيل الذكـر، ونقيق الضفادع، وعن بصرى ضوء المصابيح حين أخذتها بين ذراعى، وأهويت عليها أقبلها. وكنا واقفين، وكانت تهمس بين لحظة ولحظة بكلمة واحدة «الناس! !» ثم تصمت. ثم رجع كل منا من طريق، يدوس بحذر على الأرض المشققة...

ومنـذ الليلة، وفى ذهنى صورة مهوشـة عن القمـة التى يقف عليها الأحباب. وتذكرتها بالصيف، وتذكرتها بالحر. وفطنت إلى أن استسـلامنا للضعف فى أول أعمارنا، قـد يكون أخف وطأة مما أمارسـه الآن... أن أتظاهر بالقوة وأنـا جد ضعيف، وأن ألهث فى صمت، كما يلهث الحمال المريض بالقلب.

فأين أنا إذن من جمال أفندى؟! الذى قال عنه أحد الفراشين: إنه رآه يقبل الآنسة فاطمة وهى تهبط السلم، ولم تسخط عليه. وأكدت طالبـة من طالباتـه لأمها فى البيـت، أن جمال أفندى سـيتزوج عطيـات، لأن نظراته لا تنزل عنها طول الحصة، وأنهما يخرجان

آخــر الخارجين ليخلوا فى الفصل لحظــة، وكثيرًا ما يراهما الناس فى مكان من المستطاع أن تخطف فيه قبلة.

وقد رأيته يزورهــم فى بيتهم. وما أمهره فى خلق العلاقات مع مــن يريد أن يتصل بهــم!! وما أبرعه بعد ذلك فــى تصفية أخلاط الأصدقاء.

ومــرت علىَّ عطيات عصر يوم، وأنــا جالس على قهوة الكوكب. كنت جالسا على الرصيف على الكراسى الموضوعة فى الهواء الطلق، فمرت علــى خاطرى. ثم رأيتها فجأة فى الشــارع تنقل قدميها فى حذاء أبيض بحذر على الأرض المرشوشــة، وتنظر إلى تحت، وكنت واثقا أنها لم ترنى، ووجدت نفسى فجأة، بعد أن جاوزتنى وسارت، راغبًا جدًا فى اللحاق بها، ففعلت.

كانــت يداى فى جيبى بنطلونى، ماشــيا أجد الخطا فى أثرها، وكان الترام يصر فى منعرج الشارع خلفى، وجرسه يدوى تحت رجل السائق، وضاع فى كل هذا الصخب صوتى وهو ينادى: عطيات!!

وحانــت منهــا التفاتة، لم تكــن مقصودة، لأنهــا بوغتت حين رأتنى. وشــرعت فورا فى التكلم بوقار المــدرس الذى لقى تلميذته مصادفة فى الطريق، فقلت فى دعابة:

– تلميذة قليلة الوفاء... لماذا لا تسألين عن صحة أستاذك؟

فأجابت فى تطلق وابتســام ورعونة نسوية تهتف بالرجل لكى يخمدها:

– أنا؟ أنا؟ ..متأسفة. أعتذر. لكن ما بال صحتك يا أستاذ عبده؟! بالعكس.. أنت تبدو فى أحسن صحة.

إلى أين؟

– خالتى هنا تسكن فى نهاية الشارع. ولم أرها من زمان.

فسرت صامتا ويداى فى جيبى البنطلون، وكنت أنظر إلى وجهها من جانب، فأرى عليه بحسرة آثار شمس الشاطئ. وقبل أن تنطلق عطيات فى الثرثرة، وجدتنى أسألها:

– ومتى عدتى من الإسكندرية؟

فانفجرت تضحك حتى اهتز نهداها. ولمست وجهها بأطراف أناملها، كما يفعل الرجال بعد حلاقة الذقن. ثم سألتنى:

– أما تزال آثارها بادية على بشرتى؟!

فأومأت بالإيجاب. وكان ريقى عسرا ثخينا قليلا عن المعتاد، حتى عجبت:

وانطلقت برهة تثرثر عن حلاوة الدنيا هناك، والحياة الطبيعية التى تدب على الشواطئ، وتعاسة سكان القاهرة فى شهور الصيف.

فقلت لها بمعنى: «بل فى كل الشهور!!». ثم سألتها بهدوء:

– لكن... ألم تريه هناك؟

فوقفت نظراتها. ولم تطرف، وهزت رأسها كأنها تناقش فكرة، ثم أجابت فى بساطة من يتكلم عن أمر عادى جدا مألوف للغاية:

– هل تقصد جمال أفندى؟

فأومات بالإيجاب.
فأومأت بالإيجاب. دون كلمة!!

* * *

ولم تكن فكرة السفر مختمرة فى رأسى فى ذلك الوقت. لكننى حملت حقيبة صغيرة فى الصباح التالى ورحلت إلى القرية.

ورأيت أمى وأختى الاثنتين فى الحال التى لا تتغير: يقبضن المعاش الذى تركه أبى كل أول شهر، ويزرعن الحبوب بيد أحد أقاربى، ويشترين السمن، ويربين الطيور.

ووجدت أمى وقد بدا على وجهها ضعف السن. وعلمت أن خطيبًا يلوح على الأفق لتوحيدة، أكبر الأختين.

واستغرق الكلام فى شؤوننا المحددة يومين أو ثلاثة، عاد بعدها الركود إلى حياتى وحياتهن. وكنت أقطع الضحا فى قراءة الصحف، والتحدث إلى الفلاحين فى السياسة، والتعليق على الجرائم التى تقع فى القرية، أو على مقربة منها، أو تنشر أخبارها فى المجلات. أما وقت العصر فقد كنت أقضيه فى الحقول.

ومرضت أمى ذات ليلة وأنا فى القرية.

وكأن شيئا مفاجئا جعلنى أدرك أن طرق الفناء لا تقل غرابة ولا بدعا عن طرق الخلق... كانت تغرف لنا العشاء ونحن ملتفون حول الصينية، أنا وتوحيدة وزينب وأمى. وكانت تتكلم. حول ماذا؟!

حول ما عسى أن يجد فى أسرتنا الصغيرة من أحداث عادية كالزواج والأسفار. وتوقفت عن الكلام، وظللنا ننتظر العبارة التالية، ولكنها غابت...

ولما تأملنا أمنا، وجدنا يدها متوقفة بالمغرفة الملوثة بالحساء، فى منتصف الطريق، بين الحلة والصينية. وحين هتفت بها أسألها مالها؟ أجابتنا بكلمة: لا شىء. لكنها كانت معووجة. لأن أمى أصابها شلل مفاجئ.

وانشغلت أوقاتى منذ اليوم التالى بأشياء ثقيلة. بالتفكير فيما يجد فى أمرها، ولو أن طبيب المركز أكد لنا أنها حالة خفيفة. وبالتفكير فى شأن أختىَّ العذراوين، ثم فى النفقات.

لكن بلادة الطبع، وبطء الحركة التى تتسم بها أسرتنا، كان لها دخل فى مساعدة أمى على الشفاء، فقد استردت حالتها العادية بعد خمسة عشر يومًا، وإن ظلت مهددة بالغارة مرة أخرى.

وبدأت أجران القمح الواقعة فى الجهة الشمالية من مسكننا، ترسل على بيتنا طوفانا من التبن، خصوصا فى الأيام التى تنشط فيها الرياح الشمالية أو الغربية عصر كل يوم. حتى إذا ما دخل الليل، بدأ طوفان جديد من البعوض، يدخل من النوافذ، حتى يغطى زجاج المصابيح.ولم يكن بعد ذلك فى بيتنا شىء يصلح للتسلية، حتى سكانه أنفسهم لأن السهرة عندنا تبدأ بعد العشاء، ثم تنتهى بعد نصف ساعة. تذهب أمى لتنام بعد أن تقرأ عدة أدعية. وتتناقش

توحيدة وزينب حول شـيء تافه كجمع بيـض الدجاج، أو إصلاح الكانون، أو الفرن، فلا تلبثان أن تختلفا، كشـأنهما دائما، فتقوم إحداهمـا لتنام. وحين تنفـرد بى الأخرى لا أجد مـا أقوله لها، فأتلهى بقراءة جريدة الصباح ونحن فى المسـاء، أو جريدة البارحة إذا لزم الأمر، فلا تلبث هى الأخرى أن تفر إلى مخدعها.

والملل الـذى تبعثه المدينـة، أخف وطأة من الملـل الذى تبعثه القريـة، لذلك صممت علـى أن أعود إلى القاهرة فـى الصباح التالى وأعلمـت الثلاث اللائى يسـيطر عليهن الملـل والصمت بما عزمت عليه، فتلاقت أعينهن على وجهى، ولم تتكلم البنتان.

كانـت توحيدة تضيق إحـدى جلاليبها، وكانت زينب تقشـر بطاطس، أمـا أمى فقد قالت لى، وهى تذيب فى كوب الماء ملحا من الأملاح التى وصفها لها الطبيب:

– لكـن.. هنـاك أمر له أهمية كبيرة يا عبـده يا بنى. يجب أن تفكر فيه.

– ماذا يا أماه؟!

فأجابت، وعلامات الاشمئـزاز لا تزال عالقة بوجهها من طعم الدواء:

– الـزواج... الزواج يا بنى. أنا قصـيرة العمر، ولن أعيش فى قمقم.

– ماذا تعنين؟!

– اقتصد شيئا من دخلك يا ولدى العزيز... لتستطيع أن تتزوج.

فغطيت وجهى بالجريدة ولم أرد عليها، وحين أطللت من زاويتها مرة أخرى على الثلاث، كانت أمى تستلقى فى سريرها على مقربة منى، وكانت توحيدة تطبق ثوبها، وكانت زينب تجمع قشور البطاطس.

* * *

٤

وقضيت بقية الصيف على الحال التى وصفته لك. وكنت أكثر من زيارة صديقى ساكن الدور الرابع من المنزل الذى تسكنه عطيات، وأحملق فى بطاقة أبيها المثبتة بالدبابيس على الخشب البنى دون أن أجرؤ على طرق الباب. أزورهم؟ لماذا؟!

وبدأت نسمات أكتوبر تملأ الجو. وأخذنا نشم رائحة الجير تطلى به حيطان المدارس، ودهان الزيت تطلى به الأبواب والشبابيك، فتوحى بمعنى العودة، وهناك بعض تلاميذ يترددون على المدرسة لمعرفة نتيجة الدور الثانى.

ثم فوجئنا - نحن المدرسين - ونحن مجتمعون فى الحوش بمجىء جمال أفندى، وكان متطلق الوجه يمشى فى فرح، كأنه يريد أن يتخفف من خبر يثقل عليه. وقال حمودة بتهكم حين رآه على هذه الحال:

- اه... لا بد أنه عين بإحدى المدارس الأميرية!!

وقال زميل آخر مكملا تهكم حمودة:

- اه... وفى القاهرة (كمان)!!

وقال ثالث:

- اه...وفى (الناصرية) ليعطى دروسا خصوصية لأولاد الذوات!!

ووصــل جمال إلى مجلســنا ونحن نضحك وأعناقنــا مائلة إليه، وســلم بطريقته التى لا تبالى، وســحب كرسيا وجلس واضعا رجلا على رجل. وبدت أفخاذه سمينة بيضاء ملفوفة فى بنطلونه القصير الأبيــض، فحملق فيها حمودة وهو يضحــك!! وكان الباقون منا لا يزالون ينظرون فى وجهه الفرحان، وابتسامته المعلقة تحت شاربه المسبســب، وقلت أنا له: ما دام يبدو على وجهك أنك تحمل خبرا ســارا، فاطلب لنا إبريقا من الشاى من (بوفيه) المدرسة. وأمن على طلبى بقية الإخوان، وأقسم عليه حموده بالطلاق أن يفعل!!

وكانــت خلاصة الموضوع أنه راحــل!! تعاقد مع إحدى المدارس الإفرنجية فى الإسكندرية مدرسا للغة العربية فيها، فكسب بذلك عدة أشياء. قال أحد المدرسين:

– هنيئا يا عم. ستسكن بلا أجرة ف بيتكم هناك.

وقال الثانى:

– وتأخذ حصصا أقل وأجرًا أكثر.

وقال الثالث:

– وتعطى من الدروس الخصوصية ما يعادل كل دروس المدرســة الناصرية.

وقال حمودة حقيقة مغلفة بقدر من الدعابة:

– وتفســح لغيرك من غير الموهوبين فى ميادين الغرام. (حل يا أخى!!).

فضحكنا وذكرناها فى نفوسنا بلا شك. ذكرنا عطيات. على حين كان جمال يهتف وهو يضحك ووجهه محمر:

– ألا خيبة الله عليك يا حمودة.

ثم رحل بعد أيـام وفاضت أعين بعضنا بالدمع ونحن نودعه. كنا نتكلف الأسـى أكثر مما نحسه، فلم تلبث الدموع أن بللت وجوهنا. ثم انشغلت قلوبنا بعد غيابه مباشرة بتقسيم التركة.. لأنه لا تناقض مطلقا بين الأسى والتركة فى هذه الحياة!! مسائل تحدث كل يوم!!

من منا سـيكون مـدرس اللغة العربية فى مدرسـة الفنون بعد انتقال جمال أفندى؟!

ومن منا سـيكون محـط بصرالمحبات فى مـدارس البنات بعد غياب هذا القطب؟!

وفوجئت فى أول الأسـبوع باسـتدعاء مدير المـدارس لى، وكنا نتناول شـطائر الفول فى حجرة المدرسين بين أكداس من كراسات تطبيق وإنشـا ، وأشيا، وصحة – فى فسـحة الساعة العاشرة ودق قلبـى والفـراش الأعور يقـول: تفضـل، وفى عينـه الأخرى أثر رمـد. ووضعت بقية اللقمة علـى الجريدة القديمة التى أحمل فيها كراساتى، وهممت بالقيام بين عاصفة من الضحك والتهنئة:

– مبروك... مبروك... موضع (جمال)... فرصة.

وعدت إليهم بعد دقائق وتحت إبطى الكتب المقررة على طالبات الفنون، كانت أعينهم أشـبه بوثيقة لا تكذب. ولم أتكلم، وعرضت

قطعة السندوتش الباقية منى على حمودة، كأنها حلاوة الظفر، فالتهمها ونحن نضحك، ولم يعفنى إفلاسى من أن أطلب إبريقا كبيرا من الشاى، وقال بعض إخوانى مداعبا أو جادا:

– لا تنس بقية التركة!!

ففهمت أنه يقصد عطيات. فاحمر وجهى وخفق قلبى، وبلعت ريقى فى وقت واحد. واستعدت المواقف القديمة التى مرت بهما، ولم يستطع خيالى البليد أن يضفى عليها شيئا من التنفير.

وفى المساء كنا جالسين على القهوة نتحدث عن بعض إخواننا القلائل الذين عينوا فى التعليم الأميرى، ونذكر واحدا منهم بالذات ضحك له الحظ مرتين، فعين فيه وفى القاهرة، وانبرى أحدنا يسرد علينا شجرة نسبه، فوصلت نسبته إلى الوزير بالضبط، فهززنا أكتافنا فى صمت، ثم طلبنا من الخادم أن يأتينا بطاولة.

* * *

انتقيت أحسن ثيابى فى الصباح التالى، وأحكمت ربطة عنقى فى ياقة منشاة، وكنت قد كويت طربوشى ليلة البارحة، ولمعت حذائى وأنا على القهوة، وحلقت ذقنى فى عناية، حتى جرحته فى مكانين... كل هذا لأننى أصبحت مدرسا فى مدرسة الفنون.

وللمرة الأولى فى حياتى وقفت أمام الصدور الناهدة، التى تجلس صفوفا صفوفا على مقاعد الدرس، وتلبس لونا واحدا من الثياب،

وتصفف شـعرها بطرق مختلفة، وتنظر إلى المدرس الجديد بفضول باسم وأعين متفحصة. ومن بين هذه العيون، كان فى الصف الأخير مـن الفصل الصغـير، عينان خضرواوان حادتـا النظرة، فيهما قوة أكبر من عمرهما، هما عينا... عطيات!!

واجتمعنـا وجها لوجه هكذا على غير سـابق أمل. وكنت أعلم أن كيانى معهـن على اللحظات الأولى وقت دخولى الفصل، فجعلت أتهيأ لهذا الموقف وأنا راقد طول الليل. وعندما تنفس الصبح أعدت ما جهزت كما نذاكر دروس الصباح.

ورأيت واجبا على أن أذكر زميلى السـابق بكلمة، وأن أدعى أن مجهوداتى ستكون صلة لمجهوداته التى تشبه الدعامة أو الأساس. وقد فعلت.

وأطرق بعضهن إلى الأدراج وابتسم بعضهن خصوصا عندما أثنيت علـى خلقه وسـددت إلى وجه عطيـات نظرة ثابتة فرأيـت عينيها مفتوحتين فى جمود لا تطفو على أديمهما فكرة. كانت أشبه بشخص لا ذاكرة له. ورأيت جارتها تنظر إليها من تحت. ثم بدأت الدرس.

وفى مسـاء اليوم نفسـه ونحن على القهوة وصل إلى سمعى ثناء الطالبات على الحصة الأولى من المدرس الجديد وذلك بواسـطة أحد الزمـلاء. وصدقـت الخبر – لأن مـن طبعنا أن نصـدق المدح – وإن تلقيته بشىء من الحذر.

وكنـت أشـعر وأنا فـى الـدرس أننى أهمـل عطيـات إهمالا

مكشوفا،كنت أدفع عنه نفسى فلا تندفع. وكانت ذكية... كالأرض الجيدة يغنيها قليل من الماء والسماد وظلت حافظة توازنها على الرغم من إلحاحى فى عدم العناية بها. وكانت تكتب إنشاء جيدا لأنها كانت مفتونة بالمنفلوطى، وكنت أجور عندما أقدر لها درجة.

ودب خلاف بينها وبين إحدى زميلاتها المنافسة وبكت عطيات تحت شجرة فى حديقة المدرسة لأن زميلتها قالت لها: إن زمن المحاباة قد فات. وبلغنى ذلك وسررت منه. لكنى بقيت كما أنا لا تطرف لى عين عندما ألقاها.

وذبلت عطيات شيئا ما واتسع عليها ثوبها المدرسى. وكانت حيوية تدبيها على جسمها الضاوى تثير فى النفس رحمة وشهوة. وأصبحت قليلة الكلام وقد كانت ثرثارة، أشبه بالمهرة المرحة بعد الشوط الطويل، فرثيت لها قليلا.

وكنت أوزع كراسات الإنشاء فى حصة من الحصص بعد أن أصلحتها فى البيت وكانت عطيات قد أبدعت حقا فيما كتبت وكنت قد جرت عليها فى الحكم كدأبى معها كأنما كنت أؤدب الغائب فى شخصها الحاضر!! ولاحظت الفتيات وهن يفتحن الكراسات ويهمسن بالدرجة، وتركز انتباهى على عطيات فرأيتها تنظر بعجب وذعر ثم تحملق فى السقف ثم تطرق ثم تبكى.

وانصرفت عنها إلى ما بدأت فيه من عمل كأننى لم أر ما حدث وتهامست الطالبات فقلت (هس) ووجهى إلى السبورة والطباشير

فى يدى ولكن قلبى كان يخفق. وكنت أسأل نفسى سؤالا كان جوابه محيرا، لماذا نحب أناسا لا نرضى عن ماضيهم تمام الرضا؟! حتى ارتفع البكاء، فالتفت:

– لماذا تبكين يا آنسة؟! مريضة؟!

فقالت جارتها المنافسة وهى تبتسم فى خبث: ربما!!. وسمعتها عطيات فانفجرت تنتحب شاكية من تدخل طالبة مثلها فيما لا شأن لها فيه. ووجدت نفسى فى إشكال، واضطرب نظام الفصل فوضعت يدى فى جيبى بنطلونى ساكنا لا أتكلم.

كنت أنقل نظراتى بين وجوههن وأنا عابس كاشر. وأكلت النار نفسها وسيطرت على الموقف من جديد وقلت للطالبة الباكية: ليس هذا وقت النقاش حتى يكون على حساب الدرس. دعيه لآخر الحصة.

وأحسست وأنا أستأنف عملى بما يحسه العطشان حين يشرب شيئا من ماء غير بارد فتخف النار ويبقى العطش. حتى دق جرس الحصة فتحرك سكون المدرسة وانبعثت الجلبة من كل ركن.

وانسربت إلى الحديقة كأننى لا أقصد شيئا، ودخلت ورائى عطيات ومعها طالبة أخرى، وحين وقفتا إلى جوارى تكلمت الأخرى وعطيات ساكتة:

– إن عطيات متألمة منك جدا يا أستاذ.

– لماذا؟

– لأنك تظلمها ! !

– أظلمهـــا؟! أنـــا أظلمها؟! (ثم قلت وأنا أبتســـم): إذن ظلمنى الله ! ! .

ثم قلت جادا: هذا إحساس شخصى لست ملزما بأن أشعر به.

– إنها أحسن طالبة فى الإنشاء طوال عهد الدراسة. وقد كان... ولم تكمل كلامها ونظرت إلى عطيات مبتسمة وكأنها تستأذنها فيما ســتقول. وفهمت المرمى. أدركت أنها تريد أن توازن بين درجاتى ودرجات جمال أفندى، لكننى تغابيت واستطردت أقول شيئا:

– حقيقة إن أسلوب عطيات جميل ولكن عندى طالبات يصلن إلى معان أعمق. والمسألة مسألة تقدير.

فقالت المظلومة وهى تنظر إلى بعينين غيمت فيهما دموع:

– أمرك يا فندى ! ! وهزت كتفيها.

واســتدارت الطالبتان منصرفتين، فرأيت جســم الأخرى طريا ســخيا يملأ الثوب، أما عطيات فقد كان جســمها ضاويا، وصدرها حيا يثير فى النفس رحمة وشهوة.

* * *

ونشــطت الإشاعات فى الشــهور الأولى من العام الدراسى حول الرســائل التى تتلقاها عطيات من جمال من الإســكندرية، وسمعنا أنها تأتى إليها على بيت الفراشة أم خليل الساكنة فى المنيل. وبقى

مــكان جمال أفندى فى مدارس النصر شــاغرًا لا يجد رجلًا يملؤه: كانت قصص الغرام التى تذاع بعد غيابه أقل ســحرًا وعمقًا وغرابة بعد أن غاب الــذى لا يبالى والذى كانت الظروف تخدمه فى أحرج الساعات.

على أننى كنت أسائل نفسى عن قصدها فيما تعمل، وأعيد عليها كل ليلة وأنا منعزل فى شــقتى المنعزلة نفس الســؤال: لماذا نحب أناســا لا نرضى عن ماضيهــم تمام الرضا؟! فلا أجــد جوابا... بل وأسمع بعد ذلك شــهقة عطيات وشرقتها بدموعها وهى مطرقة إلى الكراس فيخيل إلى أنها تبكى بين يدى.

وجعلت أدور فى الشــقة كأننى أبحث عن شــىء ضائع وأراقب الأشــباح فى الغرفة المضيئة من البيــوت المجاورة، وأتنهد، حين أتخيل أن وراء كل نافذة تقفل أو ضوء يطفأ أو ستارة تسدل، ضجعة ولذة!!

وجلســت مرة أخرى أذكر نصيبى من الحب... وأنا ابن الخمسة والعشــرين، فلم أجد شــيئا. إلا الذكرى التافهة التى حفظتها عن (حســنة) ليلة المولد. وكان الوقت متأخرًا وأنا جالس إلى الشــباك بعد أن أطفأت المصباح. وكنت قد اضطجعت فى فراشى فتأخر النوم.

كان الفضاء المظلم ممدودًا أمام بصرى والجو مائلًا نوعًا إلى البرودة وأضواء القاهرة تبدو بعيدًا خلف الســور ومن خلال الشجر. وكنت لا أزال أتســاءل عن الحب وأحاول أن أقدر القــوة الكامنة فيه كما

يقدرون القــوى الآلية بكلمة "حصان" وابتســمت هذه الخواطر ثم جمعت مشاعرى وأمسكت أنفاسى حين رأيت شبحين يتحركان فى ظلام الحارة.

كانــت النوافــذ مقفلة تقريبا وهمهمة خفيفة تســرى فى أوراق الشــجر حين كان الاثنان يتحركان على مقربة من السور. وتذكرت حكايــة حمودة وكيف كان يلتقى بحبيبته القديمة ثم قصة المصباح الــذى فاجأتهما به الجــارة والصراخ والفضيحة. ونســيت الماضى واندمجت فى الحاضر.

وتماسك الاثنان وانحنيا عند الثغرة التى فتحها فى السور عبث الصبيان ودخل هو ودخلت من ورائه.

وأحسست بمفاصلى تتخاذل وأنا جالس وتلاحقت أنفاسى كأننا مســئولون عما يفعله غيرنا. كما تخجل لمن يتكلم بكلام مخجل. ثم تلاصق الشبحان وهما واقفان عند جذوع إحدى الأشجار وسكنا تماما حتى خيل إلى أنهما ماتا. ثم افترقا فجأة كما لو رأيا شــبحًا مرعبًا وقصدا إلى ناحية الفجوة بخطا مترنحة لكنها ســريعة وعبرا منها إلى الحارة وســار كل منهما فى اتجاه. فذكرت موقفى مع (حسنة) مرة أخرى ليلة رجع كل منا من طريق.

ثــم اســتطعت أن أقدر القــوة الكامنة فى الحــب (بوحدة) كما يعبرون عن بعض القوى بكلمة (حصان) فرفعت أن الحب أقوى من كل شــىء. من الحياة ومن الموت فى وقت واحد! ! ماذا يفعل هذان

العاشقان فوق المقابر القديمة؟! ألم يذكرا ما كانا يدوسان عليه ساعة اللذة؟!

وقمت إلى الفراش ورقدت فى الظلام وكانت دقات الساعة تصل إلى أذنى من تحت الوسادة وصرير عجلات أحد خطوط الترام تأتى إلى فى السكون. وتجسمت لى شهقتها وشرقتها فأحسست كأن لى دخلا فيما حدث وكأن لى علاقة بأفكارها. لكن أهذا صحيح؟

وابتدأ تعصبى ضدها يخف شيئا فأصلحت لها الدرجة بل وكتبت لها كلمة (لا بأس). وفى الموضوع التالى أثنيت عليها شفويا أمام التلميذات فسرى بين الشفاه الحمر همس خفيف وشكرتنى عطيات بعينيها ورأيت كأن أملا يبدو فيهما.

وسهرت فى إحدى الليالى أصحح الكراسات وحين فتحت كراستها وجدت فيها ورقة، ورقة غريبة، موضوعة بين الصفحات التى يتحتم على أن أقرأها. وارتعشت يدى حين وقعت عيناى على إحدى الكلمات المكتوبة مصادفة، وكانت كما قد تفهم الآن كلمة (الحب) وأدركت من فورى أنه خطاب غرامى قد يكون موجها إلى أو يكون موجها إلى حبيب آخر لكنها نسيته فى هذه الكراسة.

وفحصت الورقة فإذا فيها أغنية... أغنية من الأغنيات الشائعة المحبوبة مكتوبة بخطها. فجعلت أقرؤها.

المعانى كلها تدور حول شخص يحب، وآخر لا يدرى (فى العسل نايم) وبقية العبارات إطار مألوف حول هذه الصورة. دموع...

سـهر... أزهار... ألحان.. وما أشبه ذلك. وفى أسفل الورقة شىء لطيـف خفيف الظـل، يحمل مغزى ويضحك فـى وقت واحد. فقد فعلـت عطيات كما يفعل المدرسـون، أعطت الأغنيـة درجة كانت عشـرة من عشرة وكتبت كلمة (لا بأس) ووقعت بإمضائها وكل هذا بالقلم الأحمر. فاستغرقت فى الضحك وأنا وحدى كأننى مجنون.

ولمـا أفقت عدت أتأمل الموقـف من جديد فتارة آخذ منه شـيئا يخصنى وأعدل عما فهمت تارة أخرى، لكننى تحيرت أخيرًا فيما أفعل: هل أترك الورقة فى الكراس، أو أستبقيها عندى؟ وإذا كانت قاصدة وضعها فأى الفعلين أشـد تأثيرًا علـى قلبها، وإذا كانت لا تقصـد وضعها فأيهما خير إذا كنت طامعًـا فى قلبها؟! وأخيرا... أخـيرًا كأنى أمام مشـكلة عامة، قررت تـرك الورقة فى الكراس. أفعال بنت ستة عشر وأفكار ابن خمسة وعشرين!!

دخلت والكراسـات تحت إبطى فساد النظام. وانسندت الظهور الغضـة إلى المقاعد الخشـبية وتطلعت الوجوه نحو السـبورة. لكن عطيات كانت غائبة!! وتألمت!! وأحسسـت كأننى أركب سـيارة توقفت عند حفرة فى الطريق وأنا مسـتعجل، فمططت شفتى وعلا وجهـى اشمئزاز ذكرت به اشمئزاز أمى يوم كانت تشـرب الدواء وتوصينى بأن أقتصد من دخلى شيئا لأتزوج!!

وقالت لى طالبة جريئة: أأنت اليوم تعبان؟!

ووزعت كراسات الإنشاء بنفس فاترة، وجاء دور كراستها بعد

ست كراسات فوضعتها فى الآخر ، حتى إذا ما انتهى التوزيع بقيت كراستها أمامى. ونظرت إليها على درجى وإلى درجها الخالى فى آخر صف بعين فهمت الطالبات ما فيها، فقالت جارتها المنافسة: إنها غائبة.فأجبت وأنا مبتسم وبلهجة فيها شبه تأنيب:

– عارف!!

– هل تحب حضرتك أن آخذها وأحتفظ بها فى درجى حتى تعود عطيات؟

فأجبت دون أن أرفع وجهى إليها:

– لا. ولم أر ما بدا على وجوههن، ثم قمت فاستأنفت عملى.

ولم يكن لى حصص فى اليوم التالى فى ذلك الفصل ولم أحاول أن أعلم عنها شيئا، وكنت واثقا أنى سأراها ثالث يوم فى حصة التطبيق لكننى لمحت مكانها خاليا وأنا لدى عتبة الفصل، فأحسست كأن مسمارًا دق فى كل أذن وأن دوارًا أطاح برأسى لكننى أفقت بعد ثانيتين.

وتشددت على نفسى فلم أسأل عنها زميلاتها، ولما انتهت الحصة وخرجت دون أن أسأل كذلك أحسست بحلاوة الظفر التى تمس قلب من يعبر النهر عوما، ولما زايلتنى هذه الحالة، قلت ما أتفهنا!!

وفى اليوم الرابع زاد إصرارى على عدم السؤال وإن علقت عيناى بمكانها وحضرنى طبعى كاملا... أن أتكلف دائما فوق ما أطيق.

لكننـــى حين عــبرت عتبة الفصــل خارجا كنت شــديد الانقباض. وجلست على القهوة آخر النهار وجاء حمودة يتبختر وبين إصبعيه بقية سيجارة فلما رآنى ساهما بدأ يتهكم:

– أفكار... يا أستاذ عبده!!

– أفكار يا حمودة !!

– ومن أين تنبع هذه الأفكار؟ من الجيب أم من القلب؟!

فاندفعت أقول جادًا تماما دون أن أدرى:

– أريد أن أتزوج يا حمودة!!

فاستغرق فى الضحك حتى بدت أسنانه الصدئة ثم أخرج منديلا غير نظيف ومسح به عينيه ثم قال فى هدوء:

– ألا خيبة الله عليك. حســبك من شــر سماعة. ثم استطرد كأنه يرتل القرآن: ألم يأتك نبأ قوم تزوجوا من قبلك؟! واســترد لهجته العادية: اتق الله فى نفسك يا شيخ وفى الأجيال القادمة. وضحكنا. لكنه قال بعد فترة جادًا:

– أتتكلم جادا؟! فأجبت فى تردد:

– يخيل إلى أننى جاد.

– هل أحببتَ. ففررت من الجواب:

– (اتنيل)!!

– خيبــة الله عليك. اسمع عندى فكرة: تزوج الآنســة فاطمة... لا، لا، هناك خير منها. ما قولك فى عطيات؟!

ومـط الحروف فانمـط قلبـى... لكننى فررت مـن الجواب!!
وأعطيته سيجارة!!

وفى اليوم الخامس لم أصبر عن السـؤال، فقالت إحداهن: إنها مريضة. وسـألتهن مرة أخرى: هل زارها أحد؟ فهززن رءوسـهن وقلن: لا. وقالت طالبة: ذكرتنا بالواجب!!

* * *

٥

وفــى عصر ذلك اليوم رأيت حتما أن أزور صديقى ســاكن الدور الرابع من البيت الذى تسكنه هى. فلماذا لا نصارح نفسنا بأغراضنا؟ لماذا نهرب منها؟!

وسمعت جلبة شــديدة عند دخولى. وكانت تســقط من بير السلم بشــكل عنيف ويغلب عليها صوت الصبيــان. وفهمت أنه احتفال بسبوع مولود وأن السلم ملغم والطريق مشغول. فصعدت ببطء حتى إذا ما أحســوا بى تراجع كثير من النســوة وبقى الصبيان والأطفال والصبايا وكان بين الجمع أخت عطيات.

كان باب شقتهم مفتوحا وكانت واقفة بجواره بجسمها الضاوى وصدرها الحى، وكان ظاهرًا أنهم أصحاب الفرح، وضحكت عطيات حين رأتنى ضحكة كثيرة المعانى كأنما اســتحت فيها الأمومة التى لم تنتج بعد، فبدت فى غيرة طبعها!! ورجتنى أن أعرج لأشــرب فنجالا...

– أى نوع يعجبك يا أستاذ؟ فعندنا اليوم مشروبات مختلفة!!

– أنا دائما أفضل القهوة.

– إذن تفضل... قهوة!!

– وأنا راجع.

وبــدأ لغط الصبيــان يخف قليلا قليلا وأنا فوق. واســترد البيت حالتــه العادية. ودخل علينا حجرة الضيــوف نبيل الابن الأصغر لمضيفى وفى يده شمعة يتراقص نورها فى النهار وفى جيبه أرواح، فقال صديقى وهو يشير إلى تحت بسبابته ويبتسم: (العاقبة عندكم فى المسرات).

– وعندكم...

– أوه... أرجــو أن ننهــض بمــا عندنا.. الحمــل الآن أقوى من الجمل!!

ولم أسمــح للحديث أن يتشــعب فقد كنت أريــد أن ألقاها.. أن أراها... وأن أنظر فى عينيها باحثا عن المعنى الضائع. ولم يتشــبث صديقى حين ادعيت أن كراسات أسبوع كامل تتكدس الآن فى البيت بانتظار القلم الأحمر.

وطرقــت بابهــا برفق وأنا أقــرأ بطاقة أبيهــا. وقادتنى أختها الصغرى إلى حجرة الضيوف، وجلست أتسلى بسؤالها عن معلومات مدرســية حتى يأتى من يؤانســنى.. حتى جاءت!! فى ثوب أزرق كأنه لون البحر هيــئ لى أنه جديد وحذاء من الجلد واطئ الكعبين وخلفها مباشــرة خادم متآكلة اسمها مريم!! أذكر اسمها. وتحمل صينية، لم ألبث أن ضحكت حــين رأيتها. كان عليها فنجالان من مغات وقهوة. ووضعتها الخادم وانصرفت وبقينا نحن فى الحجرة. وانبعثت من الراديو مقدمة موســيقية فــى هذه اللحظة لأغنية

مشـــهورة ظننت أول الأمر أنها من جرامفون. وكنت أرشف المغات فأحرق شـــفتى لأننى شـــربت وأنا شـــارد حين سمعت اللحن ولأن المغات يحتفظ بالحرارة. وجعلت أمســـح شـــفتى بمنديلى غير ناظر إلى شيء حتى بدأت الأغنية على لسان امرأة عرفت بحدة العاطفة. وهـــى نفس الأغنية التـــى كتبتها عطيات ومنحتها عشـــر درجات بقلمها الأحمر.

لم يكـــن أحد قد دخـــل علينا حتى الآن وكنـــت حريصا على أن أعـــرف، فلما التقى بصرانا وجدتها تبتســـم ومع الابتســـام كلام، فقلت:

– أغنية جميلة!

فأجابت وهى تكتم ضحكتها:

– عشرة من عشرة!!

– هل كنت تقصدين؟

– أظن...

– الكراسة لا تزال عندى.

– .....

وأطرقت ولم ترد. فقلت:

– ولماذا غبت كل هذه المدة؟ حسبتك مريضة؟!

– غبت من أجل صاحبة المغات.

– وما اسم أخيك الجديد؟

- اسمه فتحية ! !

وضحكنــا. وقلت وأنا أضع فنجالا وآخــذ فنجالا : كانت تكفينا القهوة ما دام اسمه فتحية ! !

وبدا المرح على صدرها أكثــر من أى جزء، كان حيا كعينيها أو أكثر منهما. وذكرت زميلى (جمال) ولكن ذكراه لم تطفئ نشــوتى لأننــى كنت محصورًا فى الحاضر محاصرًا بمزاياها. وأقوى الملذات هو ما ينســينا أن نرسم حياله خطة، ما يجعلنا نأخذه هكذا عميانا عن مستقبله وماضيه.. (وفيها فرج ! !).

وسمعــت نحنحة فــى الصالة تعــرف أنها لرجــل مدمن على التدخين، ثم خطوات متثاقلة دخل بها علينا رجل بدين تبدو عليه الطيبة يلبس معطفا مــن الصوف فوق جلباب منزلى، وكان هو والد عطيات.

- أهلا وسهلا بالأستاذ.أهلا بيك فى بيتك.

- أهلا وسهلا يا عمى.

وكان أنسب ما تتحدث عنه وألصق شىء بنا جميعا هو عطيات.

- لعلك مسرور منها.

- جدا. طالبة مجتهدة، ذكية.

- كتب الله لها المستقبل السعيد. اه.. علينا أن نجاهد ! !

- لو أنكم غيرتم الخطــة وألحقتموها بالتعليم الثانوى لرجوت منها إحدى أستاذات المستقبل...

فضحــك بصــدر يخرخش وتملق الســعال عدة مرات ثم أشــعل سيجارة واستأنف الحديث بثقة من جمع شتات ذهنه:

– ماذا قلت؟! أستاذة؟!. فقلت وأنا محمر الوجه:

– أى نعم.

– بناتنا للبيت.

– ليس هناك تناقض.

– ذلك شــرح يطــول.. تعليمهن فى نظرى أشــبه بالزوادة التى يعبئها المســافر، وعطيات إلى الآن تعتبر مســافرة حتى تستقر فى بيت!!

وكانــت مطرقــة. وكان الراديــو لا يــزال يبعث ألحانــا وغناء وأحاديث وأشــياء أخرى بلا حساب... ولا ســامع!! كأنه صنبور قريب من يد الأطفال. حتى خرجت!!

وكنت أخلع ملابسى آخر السهرة بعد عودتى من القهوة شبعان حامدًا الله وأنا أذكر شــيئا لعلك تذكره. تذكرت «أن قصة غيرنا قد تكون الفصل الأول من قصتنا ونحن لا نشــعر. وحين ينكشــف لنا ذلك فجأة ندق كفا بكف...».

ودققت كفا بكف – فعلًا – حين انكشف لى أن قصة جمال أفندى كانت الفصل الأول من قصتى مع عطيات!!

لكن أحلامــى كانت كخضرة الحقول، واجتزت عتبة الفصل فى المنام خمسين مرة وأنا أنظر إليها... حتى طلع النهار.

ولكنهـا لم تحضر. وقالـت إحدى الطالبات بعـد بدء الدرس، وفجـأة كأنما هناك فرصة للتدبير: بعـض الناس زار عطيات ليلة أمس واطمأن على صحتها يا أسـتاذ. وسمعتها حين كان وجهى إلى السبورة فابتلت الطباشيرة بين أصابعى لكننى استدرت على الرغم من كل شـىء وسألت فى وقار: من منكن؟ فلمعت فى عين بعضهن نظرة وانطفأت وقالت إحداهن: أنها فوزية. فسـألت: هل وجدتها بخير يا فوزية؟ فأجابت: إنها لم تكن مريضة. واسـتأنفت الدرس وقلبى يخفق، وسـؤال معلق فى رأسـى لا يـزال ينتظر رأى العقل فيه: لمـاذا؟!.. لماذا نحب بعض أنـاس لا نرضى عن ماضيهم تمام الرضا؟؟

إننا حين نفلسف الحب لا يصبح حبا (كما يقولون) ولذلك كنت حريصا على ألا أتفلسـف.. ومشـى الرضا والقلق فـى كيانى جنبا لجنب، حتى أدركت سـر الازدواج فى هذه الدنيا وأنه ليس ممكنا فحسـب بل هو ضرورى. وعلى الرغم من كل شىء لم أقل لها كلمة حين رأيتها فى الفصل للمـرة الأولى بعد غيابها حتى تورد خداها من نظرى وصمتى.

وهربت من نفسـى فـى اليوم التالى عقب انصرافنا من المدرسـة آخرالنهار.

هربت من نفسـى وقررت أن أزور صديقى سـاكن الدور الرابع وأدركتنى فى الطريق.

كنا نقصد بيتا واحدا كما تعلم ولست أدرى لماذا كانت وحدها فى هذا اليوم؟! لعلها مصادفة. كنت ماشيا أنظر إلى الأرض ويداى فى جيبى بنطلونى، وحذائى الجديد يصر فجعلت منه لحنا توقيعيا. وسمعت صوتها القوى بالنسبة إلى أنوثتها يهتف من ورائى:

– إلى أين؟ فنظرت بعينين مسكينتين إلى جنب وأجبت بنفس مقطوع:

– لا أدرى؟... هل تعرفين أنت؟!

وخيل إليها أنها أمام شاب يتغزل فى الفتاة العشرين فبدا فى عينيها مرح وفى وجهها طيش فاقتربت منى حتى لمست كتفها كتفى فى لمحة ثم عادت فخلقت بيننا مسافة وقالت تسأل:

– على فين والنبى؟! فهززت كتفى فى يأس وقلت:

– ليتنى أعرف. فعادت ترجونى بعينيها، فقلت:

– إلى بيتكم.

– آه... عنده أيضا؟

– نعم. فاستردت ملامحها العادية كأنها تجيب عن سؤال فى الفصل قبل أن تقول:

إن أبى مسرور منك جدا. جدا إلى حد لا تتصوره.

– صحيح؟

– يجب أن تصدقنى. أنا صريحة هكذا لا أعرف الكذب.

– بعض الصراحة طيش؟!

– لم أوفق حتى الآن فى التفرقة بين «الصراحة الصراحة» و«الصراحة الطيش» أنا أعرف عن نفسى أننى صريحة فقط..

– وما الذى سره منى؟

– راهن على أن الأيام المقبلة كفيلة بأن تكشف لنا فيك عن قلب طيب.

– اشكرى بالنيابة عنى حسن ظنه بى.

فقالت، وأهدابها تلمس قوس حاجبها من فرط ما فتحت عينيها:

– ولماذا لا تشكره أنت بنفسك. ألأنك لن تزورنا مرة أخرى؟!

فلم أرد. وكنت أنظر فى عينيها بحيرة، وأسأل نفسى سؤالًا جديدًا، أهم من الذى لا يزال معلقا ينتظر حكم العقل «لماذا نحب بعض أناس لا نرضى عن ماضيهم تمام الرضا»؟! أما السؤال الجديد الذى نبت فى رأسى وأنا إلى جوارها فقد كان «إلىأين؟!» وانضم السؤالان بعضهما إلى بعض، ينتظران الإجابة...

ولما تحول بصرى عن وجهها إلى الطريق رأيت أحد الباعة وهو يقشر التين الشوكى على عربته ويقدم إلى الزبائن بطرف المدية ثمار هذه الفاكهة الوحشية..

* * *

تذكرت قول أمى ووجها متقلص واشمئزاز الدواء لا يزال عالقا على ملامحها: «يجب أن تدخر شيئا من دخلك يا بنى، لتتزوج» –

وكان ذلك فى ليلة أحسست فيها حرقة الأرق والقلق.

ومنذ هذه الليلة لاحظت سؤالا ثالثا يطفو على السطح وينضم إلى السؤالين السابقين. وكان منطوقه: هل تصلح عطيات زوجة لى؟!

فأصبح كيانى فى هذه الفترة مبنيا من أسئلة ثلاثة:

لماذا نحب بعض أناس لا نرضى عن ماضيهم تمام الرضا؟

إلى أين؟!

هل تصلح عطيات زوجة لى؟!

لكن هذه الأسئلة بقيت معلقة فى رأسى تنتظر حكم العقل.

لكن... هل تبقى أعمالنا معلقة حتى يرسم لنا العقل خطتها؟! لا، مطلقا. إنه بالنسبة إلى كثير منا أشبه بالأم المتزنة لست بنات طائشات... تراجع الأم أعمالهن بعد وقوعها وتحرق من أجلهن أعصابها!!

وانزويت فى أحد أركان الحديقة أدخن سيجارة بإمعان بعد فسحة الساعة العاشرة وكنت فارغا من الدروس محبوسًا خمسًا وأربعين دقيقة فى انتظار الحصة الأخرى.

وكانت أصوات الأطفال فى الروضة تحمل إلى غناء يصاحبه البيانو، وصوت أحد مدرسى الإنجليزى يأتى من نافذة فصل. وجرس الناظر يقرقر طالبا الفراشة. وفوجئت وأنا أدوس بقية السيجارة تحت قدمى على أرض الحديقة بعطيات مقبلة نحوى فى الممر. أخذت وسألتها ولا يزال بينى وبينها مسافة: (إلى أين؟!) ثم دق قلبى لأن هذا السؤال لا يزال قائما فى حياتى، ينتظر الجواب!!

فأجابتنى وهى تقف على مقربة منى:

– إلى مدرسة البنين. أخذت أقصرطريق إلى حجرة الطبيب هناك.

– مالك اليوم؟

– أشعر بالغثيان، ودوار... مستمر!!

– .....

– مستمر؟!

– آ.... وكان ينقصهـا حرف لتصبح آهـة. وكان وجهها ذابلا كأنهـا معصـورة لكن صدرهـا كان حيا. ووضعت يـدى فى جيبى بنطلونـى ونظرت إليها فـى ارتباك وكانـت أهدابها تلمس قوس حاجبها وهى رافعة نظرها إلى وعلى فمها شـىء أشبه ببقايا الكلام أو بـوادره كان أقوى من احتمالى لكننـى تجلدت. ولم يكن الصمت طويلا لكن خيل إلينا أنه طال. ومدت يدها إلى صدرى، فأخذت، ثم أدركت أنها شاءت أن تعدل ربطة عنقى فى الياقة المنشاة وقد كانت فى غير مكانها. فارتجفت مفاصلى!!

يخيـل إلى أننى هممـت أن أفعل شـيئا بصرف النظـر عن أى اعتبار،غير أنها تركتنى وواصلت سيرها عابرة إلى طبيب المدرسة. وأشعلت سيجارة أخرى وأنا فى مكانى حتى دق جرس الحصة.

لم تعد مـن نفس الطريق. لعلها خرجت مـن الباب الآخر. إلى بيتها!!

بعد ذلك بأسبوع...

دســت عطيات فى يدى رســالة مغلفة وهى تجتاز أحد الممرات وكنت أجتازه إلى فصل غير فصلها ووضعت الرســالة فى جيبى وأنا أتلفت فخيل إلى أن عينى الفراشة أم خليل تراقبنا ! !

وانزويت أقرؤها بعد انتهاء الدرس وأنا واقف فى أحد الأركان. كان اسمى على الغلاف مكتوبا بخطها هى فدعانى ذلك إلى أن أحذر حتــى لا يجوز ارتجاف يــدى على الخطاب فــى الداخل فيمزقه. لكننى فوجئت حين وقعت عينى على الخطاب أنه بخط رجل، بخط غــير خطها على كل حال. وفوجئــت مرة أخرى بأنه مذيل بإمضاء أبيها. ولم تزد الرســالة على بضعة سطور فى أولها تحية واحترام وفى وســطها سؤال عن الصحة وفى آخرها استدعاء على عجل لأمر (خاص وهام) ! !

كان اليــوم خميس والدراســة فيــه نصف يــوم. ولم أر عطيات وأنا خارج حتى أســألها عن الأمر. وتغديت فى أحد المطاعم بنفس قلقة، مجــالات التخمين مفتوحة أمامها فى كل اتجاه. ولم أجد بى حاجة إلى النوم بعد الغداء وإن كان النوم من عادتى، فجلســت على قهوة الكوكب أضيع الوقت حتى جاء الميعاد.

فتحت لى مريــم خادمتها المتآكلة غرفــة الضيوف, ووقف على بابها أحد الأطفال ينظر إلى وهو يقضم قطعة الشيكولاته وفى عينه تأمل، فجرته يد الخادمة، وسمعت الســعال المخرخش فى الصالة فعرفت أنه الوالد:

– أهلا وسـهلا بـك فى بيتك. كيف الحال يا أسـتاذ عبده؟ من زمان!

– تحت النظر يا عمى.

– أهلا وسهلا. أهلا وسهلا. وأخرج علبة السجاير.

وتفرسـت وجهه أقـرأ أنباء المسـتقبل فتعثرت فراسـتى بين تجاعيده.

ثم دخلت علينا الأم بجسـمها الشاب ووجهها العجوز فعجبت كيف تحتفل مثل هذه السيدة بسبوع جديد. وخيل إلى أنه كان يجب أن تقفل مثل هذا الدكان منذ سنوات. لكنها أحوال!!

وابتـدأت (أهلا وسـهلا) تخف عن الحديث وسـألتنى الأم عن بنتها،وقلـت بالطبع مـا يقوله الناس. ودعت هى لها بالمسـتقبل السـعيد وهى تنظر إلى غوايشها الذهبية وإلى خاتم الزواج فى كفها الشمال. ودخلت عطيات علينا بعد ذلك.

ونظـرت فـى السـاعة لأسـتعجلهم وقالـت عطيـات: (وراك كراسـات)؟ فقلت وأنا أضحـك: ورائى وأمامـى وخلفى وقدامى، وتحت قدمى وفوق رأسـى. واسـتغرق الجمع فى الضحك. وعادت الفتاة تسألنى:

– وأين كراسـاتى بين كل هؤلاء؟ فأشرت وأنا خجلان إلى رأسى من أعلى.

وسر الأب بأدبى، وابتسمت الأم، ونقلت عينين غير مستحيتين

بينى وبين بنتها كأنها تقيس بيننا المسافة. ثم قال الأب بعد صمت قصير:

– أيوه يا أستاذ عبده. هناك موضوع أرجو أن توافق عليه.

– نعم يا عمى.

– أنت تعلم أنى موظف فى وزارة الصحة، ورئيسى هناك رجل طيب، وقد كلفنى خدمة. (وسكت).

– نعم ياعمى.

– وسألنى عن مدرس مخلص لأحد أبنائه...

– فهمت، وأشكرك.

– موافق؟

– وبالمجان من أجلكم.

– لا. لا. أنا أتحرى مصلحتك أولا وقبل كل شـــىء.إنك لا تعدو الآن أن تكون أحد أبنائى. هل تحس بذلك؟!

– أشكرك. هذا أملى فيك.

ولما انصرفت كانوا يودعوننى عند الباب. وكانت عطيات بينهم، ناضرة نوعا. والجو مائل إلى الدفء، وروائح الامتحانات تهب من قرب. وحين دلفت إلى الشارع كنت أفكر فى الموضوع من نواح شتى، لكنه استغرقنى حتى غرقت فيه!!

* * *

٦

وبدأت أعتبر التلميح غيرة والتهكم حقدا والسؤال بالحسنى تدخلا فى الشخصيات وأخذت العلاقة بينه وبينها وضعًا سافرًا تحوطه من ناحيتى ركانة وعدم اندفاع، ومن ناحيتها أن لأبويها صلة بى تزيد كثيرًا على الصلات العادية.

لكننى حتى هذه الفترة، لم أجلس معها فى خلوة، وكنت أرى فى عينيها تودد ووعدا، فشعرت أنى أملك شيئا. ووازنت بين مسلكى ومسلك حبيبها القديم (الذى أكدت لنفسى أنها نسيته) فوصفته – ولست أدرى لماذا – بأنه... رجل سخيف!!

وهكذا حللت العقدة وتوهمت أنه حكم سليم، وإن بقيت الأسئلة الثلاثة التى يتركب منها شبابى معلقة تنتظر الحكم.

وفى مساء يوم سيظل ماثلا فى خاطرى... كان يوم خميس أيضا ذهبت فيه لأزور صديقى ساكن الدور الرابع من بيتها الذى تسكنه. ومررت على بابها فرأيت نورا ينبعث من ورائه خافتًا بعيدًا، فلم أعرج بل واصلت صعودى لاويا عنقى إليه. فوجدت شقة صديقى غارقة فى الظلام، وكان أمام بابها باب السطح فرأيت عند مدخله صفيحة القمامة، وقطة بلقاء تنكت فيها فاستوحشت وأسرعت بالنزول.

وتوقفت عند بابهـم كأنما نفد وقودى، وطرقت عليه خفيفا فلم يرد أحد وخيل إلى أن أحدهم فى الداخل ولا يريد أن يفتح ويسـأل من هـذا الثقيل؟ لكننى تذكرتها فخبطت بشـدة. ولمع نور المصباح الخارجى على رأس الباب قبل أن تفتح الخادمة المتآكلة وكفها على خصرها كأنها تشكو وجعا.

– تفضل يا سيدى!.

فدخلـت لا ألـوى على شـىء. ولم أسمع صوتا وأنـا فى حجرة الجلوس كأن البيت خالٍ من السـكان. ولم أسمع دبدبة فوق رأسـى كمـا هىالعادة لأن أسـرة صديقى كانت فى الخـارج. وخيل إلى أن وحدتى طالت فصفقت ليجىء من أستأذن منه فى الخروج وفى هذه اللحظة كانت عطيات تعبر العتبة... فى ثوب أبيض فيه نقط حمراء قدر حب السمسم. وجسم مال إلى النمو حتى خيل إلى أن الثوب قديم لأنه كان يدنو إلى القصر وجلسـت على كرسى مجاور وهى ترحب، ولم ألبث أن سألتها عمن هنا فأجابت:

– غايب يا فندم!!

– لماذا؟

– فى فرح يا فندم!!

– ولماذا تخلفت عن القافلة!!

– مشغولة يا فندم!! (وأطرقت تنظر فى حجرها وهى تضحك).

– جدا؟!

– آ... (وهى التى تخصهـا والتى ينقصها دائما حرف (لتصبح أهة)... ونظرت بعينى المسـكينتين إلى صدرها الحى فخيل إلى أنه يلمس صدرى. وأحسسـت بحاجة إلى أن أسمـع كلمة من عطيات، كلمـة معينة... بدت لى كأنها «أمر بالحياة» وأن كل القوى الظاهرة والكامنة فى كيانى ستنبعث فورًا عند سماع هذا «الأمر».

وظلت عيناى المسكينتان تنظران فى فتحة الثوب من فوق الصدر وتحت العنق. وتخيلت ثانيا أن شيئا عذبا يتفجر من هذا المكان فلم أملك نفسى حتى لمسته.

عند ذلك ألقت رأسها على كتفى فى استسلام طبيعى بلا خوف ولا ترتيب. وكانت تنظر إلى تحت فرأيت رأسها من أعلى وتأملت شعرها المفـروق من ناحية ثم قبلته.. وحين أمسـكت ذقنها بإصبعين لأرفع وجهها إلى انطفـأ النور فوق فمى على فمها فى الظلام. ثم حاولت أن تتركنى لتشـعل مصباحا فلم أفلتها من بين يدى. وكانت الخادمة فى الداخل مشـغولة بالبحث عن علبـة الكبريت فى المطبخ فأوقعت على البـلاط إناء من النحاس أحدث ضجة فى السـكون المظلم. وكان الحى منطفئا كله فسمعنا ضجة الفجأة عند انطفائه ثم أعقبها صمت!!

وعند ذلك استطاعت عطيات أن تسمع همسى:

– اتحبيننى؟!

فأجابت بوله:

– آ... جدا!!

ثم سمعت أنفاسها وأنا أطوق خصرها بذراعى، وسمعت بعد ذلك قولها بنبرة يغلب عليها الضحك:

– ولكن... لماذا لم تسألنى هذا السؤال... ونحن فى النور؟

وغمغمت بضحكة وأنا أفتش عن شفتيها من جديد ثم قلت لها:

– أعيده... أعيده طول الليل حتى تطلع الشمس، وأعيده طول النهار حتى تغرب ...

وجاء صوت الخادمة من ظلام الصالة يسأل ونحن ملتصقان:

(ستى... ستى... ستى... فين علبة الكبريت؟!)

ولما انفصلت عنى ذهبت مع الخادمة، استطعت أن أدرك أى شىء فعلنا، ففكرت فى النزول عندما تعود. ولكن النور سطع فجأة وجاءنى من المطبخ صوت ضحكتين. فابتسمت وأنا فى مكانى لأن مفاصلى كانت مرتعشة.

* * *

ومنذ ذلك اليوم جعلت ألتمس الأعذار للأحباب حتى كدت أرى تسللهم إلى المدفن القديم تحت نافذتى أمرا يكاد يكون طبيعيا!!

حضن وقبلة غيرا رأيى وحولا أفكارى عن جمال أفندى. ولم تعد الإسكندرية تخطر على بالى من أجل خاطره، ونبعت الحياة كلها وصبت من (عطيات) ولم نعد نأبه كثيرا بالعيون المتطفلة التى تناوشنا فى الفصل ولا بالأقاويل الباطلة أو الصحيحة التى تشاع

حولنا.وأصبح ماضى حمودة مع زوجته دستورًا غير مكتوب أقتبس منه قانون علاقتى معها، حتى انتهى العام!!

وكان حتما أن أسافر...

لأن هناك شئونا فى القرية يجب أن أشارك فيها: أمى مريضة،وتوحيدة على وشك أن تزف إلى زوجها. وهناك بعض حسابات بيننا وبين المزارع على أن أصفيها وأنا الرجل الوحيد فى البيت منذ مات أبى.

وخيل إلى أن الهواء الصالح للتنفس لا يوجد إلا فى فضاء القاهرة وأننى سأختنق إن رحلت. قلت لها ذلك بالحرف حتى ضحكت من قولى بمرح، وقبلتنى خلسة وأنا خارج من مسكنهم آخر السهرة حين ودعتنى إلى السلم ولم يكن أبوها هناك فى هذه الليلة وتشاغلت أمها بعمل كأنما لتمنحنا فرصة.

وقلت وأنا أدور مع الدرجات نازلا إلى الشارع ونور غير زاه يغمر البسطة.

قلت ووجهى إلى أعلا وهى منحنية على الحديد تودعنى بهمساتها:

- أسبوع واحد... فقط!!
- صحيح؟!
- صحيح!!
- وإن زاد؟

– عملت على أن أفصل بينه وبين الذى سيليه بمدة... ولو بيوم واحد أقضيه فى القاهرة، ثم أرجع...

– مع السلامة.

– ...

وتنهدت وظللت ناظرا إلى أعلى حتى وصلت إلى الأرض، وعبرت العتبة فألقيت نظرة على وجهة البيت.

وهناك فى القرية رأيت أشياء كثيرة، قوية، استطاعت إمكانياتها أن تنسينى وعدى. ومر أسبوعان وأنا مقيم لا أفكر فى العودة بإلحاح لأن أمى كانت متعبة، مريضة تريد أن تعجل بزفاف بنتها، أما البنت الأخرى فليرعها الله!! وأما أنا، فأنا رجل، لا يخشى على من حيف الزمن!! (هكذا قالت أمى).

وسافرت توحيدة مع زوجها مساء وأضحى بيتنا فى اليوم التالى عميق السكون. وظلت أمى فى فراشها حتى وقت متأخر من النهار ثم نهضت صفراء. واستيقظت زينب منذ الصباح الباكر وكانت تعمل حاجات البيت بسرعة غير عادية ووجه غير باسم كأنما يحزنها أمر.

وقلت لهما: لا بد أن أسافر.

– هل وراءك شىء يا بنى فى المدينة؟!

– أوه... بل أشياء.. هل نسيت ما قلته يا أمى؟ ألست معى فى أنه من الضرورى أن أجتهد حتى أدخر شيئا لزواجى؟ دروس!! درس خصوصى بانتظارى هناك... لا بد أن أسافر.

فنظـرت زينب إلى مـن فوق كتفها وهى تعجـن فى وعاء صغير وأطرقت أمى تنكت الأرض بعود ثم تنهدت ودعت لى بالنجاح.

وكنت واثقا أن عطيـات قلقة من أجلى وأنها ربما كانت غاضبة منـى لأننى أخلفت وعدى معهـا. على أن نار شـوقى إليها كانت شـديدة. وكنت وأنا فى طريقـى إلى المدينة أقلب الأسـئلة الثلاثة التـى يتركب منها شـبابى لأصل إلى نتيجة سـريعة مع هذه التى أحببتها...

ورميت ببصرى من نافذة القطار وأنا أقول فى نفسى: إذا أدركنا كيف نولد... أدركنا كيف نحب.

ثم ابتسمت وأنا أرجع ببصرى إلى الداخل ليقع على رجل ينهش خيارة كبيرة وكنت أسمع قطمة فيها وأنا أفكر. وكان يتكلم مع فلاح آخر ويحدثه عن أسعار القطن.

وحين دخلت شقتى الصغيرة رأيت التراب معششا فيها وصحيفة من صحف المساء مرمية على السرير تحمل التاريخ الذى رحلت فى صباحـه. ونظفت المـكان بقدر الإمكان ثم اضطجعت. وكنت أسـأل نفسـى: هل تصلح عطيات زوجة لى؟؟ فأجابتنى كمن يزجر طفلا: «تصلح!!».

ولما عدت أسـألها: لماذا نحب بعض أناس لا نرضى عن ماضيهم تمام الرضـا؟ أجابتنى نفـس الطريقة: «دعك مـن الماضى. العبرة بالمستقبل!! ومن حق الفتاة أن تلقى شبكتها!!».

ولما سألتها السؤال الثالث: إلى أين؟! أجابتنى بعنف شديد: «أيها الغبى، إلى حيث يذهب كل الناس!!...».

فضحكت وأنا مستلق على ظهرى كأننى سمعت نكتة، وكنت نائمًا بملابسى التحتانية فقط، بلا جلباب من شدة الحر. فقمت وأنا أتمطى لأسحب حذائى من تحت الكرسى، وحين أتممت لبس ملابسى كان الليل قد هبط وخيم على الحارة سكون ناعم.

ووصلت إلى ناصية الشارع الرئيسى فرأيت عطيات تعبر فيه. عرفتها من ظهرها. كانت متجهة ناحية بيتها سالكة إليه أقصر الطرق. وخيل إلى أن عودها نما فى الخمسة عشر يومًا، فأصبحت طويلة وبان بيان ساقيها ودقة خصرها أكثر وأكثر.

وليس أيسر على نفوسنا من إلغاء الناس من حسابنا فى بعض الظروف. الناس الذين نذكرهم بغير وعى، حتى حين نعقد ربطة العنق أو نرمى بزر الطربوش إلى الوراء، ننساهم ببساطة حين تنبض قلوبنا بشدة.

وهتفت وأنا أسرع الخطا كأننى أجرى فى الشارع: عطيات.. عـ... فإذا بها تلتفت، وتقف كأنما نفد وقودها، كما كنت أقف عند باب شقتهم. وسلمت عليها بكفى الاثنتين ولم أتكلم، وشدتنى إلى اتجاهها، فمشينا عدة أمتار. فسألتنى وهى تضحك: هل جئت؟ فأكدت لها أننى لا أزال غائبا... عن وعيى وحسى، لأننى لم أرد!!

كان ريقى جافا وأطرافى باردة لكننى وقفت فجأة فى عرض

الشــارع كما يقف الحصان الحرون. وشــعرت عطيات بخطر داهم ففغرت فمها وفتحت عينيها. ولكن ظل البشاشة وقف على خديها على الرغم من كل خوف، وسألت: مالك؟

– لنرجع!!

– إلى...؟

– إلى البيت.

– أى بيت؟!

– بيتى.

– لماذا؟

– لماذا؟

– أليس ذلك مخيفا؟!

– لا!! مطلقا.

– يخيل إلى كأن كل الناس يعرفوننى هنا.

– يخيل إليك...فقط.

– .....

– لنرجع!!

فاســتدارت فى صمت وســرنا كأننا فى حلم وأوحينا إلى نفســنا بطريقة رجوعنا بمعان ربما كانت لا تخطر على بالنا من قبل. وحين دخلنا الحارة سرنا بجانب السور ومررنا على الفجوة المفتوحة التى صنعها الصبيان ليدخل منها العشــاق إلى ظلال الشــجر. وارتجف

جسمى جدا كأنها كانت نافذة مفتوحة على (القطب) عبرت إلى من خلالهـا أنفاس الجليد، لكننا واصلنا مسـيرنا حتى دخلنا البيت. وعثرت عطيات فى أول درجة من درجات السـلم وكانت مكسـورة فأمسكت بيدها فى الظلام ثم أنهضتها. وأطلقت الظروف فى نفسنا بعض معان أحسسـت قوتها كأنها يد تقلقنى. وحين أشـعلت نور الحجرة التـى تحوى كل أثاثى كانت عطيات متداعية لا يبدو على وجهها شىء من جرأتها المألوفة!!

وسـألت نفسـى بسـرعة: لماذا تبدو هكذا؟! سـألت نفسى هذا السـؤال فى اللحظة التى رأيتها فيها تتحرك نحـو النافذة لتلقى نظرة على الفضاء المواجه. ذى الشـجر، السـاكن المظلم، الذى تلمع من بعده مباشرة أضواء الشـوارع. فقلت لها وأنا واقف إلى جوارها وأشير إلى شجرة بدت أكثر ضخامة:

– هناك رأيتهم يلتقون؟

فهزت رأسها تسأل:

– من؟!

وكان ظهرنا إلى النور فبدأ بياضها أشد نصوعا، فقلت:

– الأحباب.

فشهقت من الخوف ولم ترد على. لكن كل شىء فيها كان يدفعنى إلى الكلام وإلى أكثر من الكلام. فقلت وأنا أمسك كفها:

– وعرفـت – منذ ليلتهـا – أنه أقوى من الحيـاة، ومن الموت

كذلك!! فنظرت مستفهمة، مع علمى أنها تفهم!!... فوضحت:

– أقصد... الحب!!

وضغطت على (الباء) وكل كفها...!! ففتحت فما حبست فيه آهة...

«هناك بعض أعمال يزاولها الناس حتى فى المرة الأولى بنفس الطريقة وبنفس الدافع نلتقم به الثدى لنمتص منه غذاءنا لأول مرة. لكن هذه الأعمال جميعها نعبرها كما نعبر الأحلام، ثم نحس أننا مارسناها، بالنتائج التى تتواصل إليها. أما العمل نفسه فقد لا نشعر به!!».

فقد قالت عطيات تسألنى وكان على وجهها جزع حقيقى:

– وكيف عملنا كل هذا؟! فأجبتها وأنا مستخذ:

– طبعا... بلا قصد.

قالت وفى عينيها دمعتان كبيرتان:

– طيب... والنتائج؟!

قلت وأنا أقبلها قبلة لم أحس لها حلاوة كأننى آكل جميزا بعد أن مصصت السكر:

– النتائج؟!... أى نتائج؟!... سنتزوج.. ضرورى!!

وحين كانت تهبط السلم رأيتها تتلفت كأنما ضاع منها شىء. وحين استقررت فى مكانى من الحجرة رقدت وأنا أنظر إلى مصباح السقف وكنت أذكر شيئين كانا أكثر وضوحا من كل ما وقع:

قولى لها: سنتزوج!!

وقول أمى لى: تزوج يا بنى!!

ليلة كان على وجهها تقلص وشمئزاز من طعم الدواء وفى عينيها شرود ووجل من المستقبل...

فهـــل درت أمى ليلتئذ أن هناك أناســا يتزوجـــون بطريقتى أنا وعطيات؟!

* * *

٧

كنت أريد أن ألقاها كل يوم!!

ففى الحب أشياء أحلى من الشكوى. ذقناها ونحن فى غفلة. فلما أفقنا لم تعجبنا. حتى أحسست عصر اليوم التالى أنها شىء طبيعى...

وطرقت عليها بابها ففتحت لى مريم، خادمتها، ذات الثوب الرمادى الذى لا يتغير والوجه اليابس. وأشارت وهى مطرقة إلى الأرض نحو حجرة الجلوس.

وكان ذلك فى المساء. وكان البيت ساكنا كأن ليس فيه إنسان. وخيل إلى أننى سمعت سعلة أبيها ذات الخرخشة وكأنما مر فى الصالة ولم يدخل. وأطل الطفل الصغير من باب الغرفة وهو يقطم شيئا فسحبته يد لا أعرفها. وطالت وحدتى حتى شعرت بالإهمال. ربما كنت مرهف الحس فى هذه الليلة كثير الخيالات لكن أمها دخلت على وعلى فمها ابتسامة مغتصبة وكأن فى أعماق عينيها شيئا غير الذى يبدو على السطح. وقدمت إلى القهوة فارتعشت يدى بالفنجال حتى تلوثت ثيابى فنظرت إلى الأم بزاوية وهى تقول: «معلهش. خير إن شاء الله!؟» وتكلمنا عن كثير: عن الناجحين والناجحات، والراسبين والراسبات، وعن موجة الحر التى اجتاحت القاهرة والتى قالت مصلحة الأرصاد إنها لم تشهد مثلها

منذ ثلاثين سنة... كل ذلك وعطيات لم تظهر.

وتحيرت. هل أسأل؟!

وبعد إطراق وتفكير استجمعت فيه قواى، جازفت أقول:

– هل عطيات مسافرة؟!

ونظرت إلى وجه الأم فرأيت على فمها اللئيم استصغارًا لمجهودى وكأنها كانت تقول «على مين؟!». ثم هزت رأسها بالنفى:

– لا... إنها هنا... غير أنها متعبة قليلا.

وكأنما حملت كل كلمة من إجابتها شيئًا من سر ليلتنا المعهودة فبلعت ريقى وأطرقت أنظر إلى حذائى الذى لم يلمع وكان عليه شىء من تراب الريف. وبعد مجهود جديد جازفت أسأل:

– ولا تستطيع أن تنهض من فراشها؟

فقالت بشبه أسف:

– تستطيع، لكن أظنها الآن نائمة... لأنها لم تنم ليلها الماضى.

فاستأذنت فى الخروج فلم تستبقنى وقتا آخر... ولم تودعنى إلى الباب سلمت وهى فى مكانها وتركتنى أفتح بنفسى بابا مستقلا يؤدى إلى البسطة، فنزلت ورأسى يدور كأننى خارج من حانة. ولما اقتربت من قهوة الكوكب سمعت ضجيج بعض المعارف وهم يلعبون وتوقفت على البعد نفسه أوازن بين الراحتين اللتين أطلب كبراهما. راحة الوحدة، وراحة الاندماج فى الناس. فألفيتنى أضع يدى فى جيبى بنطلونى وأجد السير نحو شقتى الخالية.

وبددت الليل بالطريقة التى يبدده بها المؤرقون. أطللت على النوافذ من حولى وتخيلت أشياء تناسب قلقى. وعلى الفضاء ذى الشجر. وحين رأيت عاشقين ينفذان إلى الداخل من الثغرة المفتوحة خطرت ببالى عبارة قرأتها فى جريدة يومية قالها واعظ من وعاظ السجون لمحكوم عليه بالإعدام «من دخل باب الجريمة خرج من باب العقاب» ثم حورتها أنا وأنا أنظر إلى الفتحة: «من دخل من باب اللذة خرج من باب الندم». ثم استلقيت فى فراشى أنظر إلى مصباح السقف حتى نمت ثم استيقظت والنور موقد والحر خفيف والوقت قريب من الفجر وبعض نسمات وانية تلعب بأشجار المدفن. فأطفأت النور ثم استأنفت نومى.

وعندما صاح أول بائع فى الحارة كنت لا أزال محتاجا إلى الراحة، لكن طرقة على الباب أرجعتنى إلى اليقظة. قلت فى نفسى: حتما، ككل مرة، واحد أو واحدة من أهل المرضى الفقراء الذين يسألون عن المرض الساكن فوقنا... لعنهم الله. دائما يخطئون!! لكننى إذ فتحت وجدت إنسانا يطلبنى.

مريم!!... خادمتها المتآكلة ذات الثوب الرمادى الذى يغير بثوب رمادى. كانت كأنها ناهضة من فورها من النوم، وكأنها لم تغسل وجهها بعد، وناولتنى رسالة مغلقة وهى تلقى تحية الصبح، ثم نزلت فلم أسمع وقع أقدامها لأنها حافية.

لم تكن بى قوة تساعدنى على فض الرسالة بسرعة. ولم يكن على غلافها كتابة، فلم أجزم بأنها منها هى.

ووضعتها على المنضدة وجعلت أنظر إليها وأنا أهمس "يا فتاح يا عليم"، وبائع الفول ذو العربة المتنقلة يجادل إحدى البنات بصوت مرتفع. ثم... فضضت الرسالة فكانت منها هى!!

قرأتهـا ثلاث مرات حتى عرفت طعمها، لا لأنها كانت غامضة أو ضعيفة، بل لأنى كنت فى ذهول. ورأيت فيها أثر سهرها لأنها طويلة، ورأيت فيها أثر مجهود استعانت فيه ببعض الكتب. كأنها مذكرة لأحد المحامين.

قصت علينا قصتها مرة أخرى!! لكنها جعلت من نفسـها فتاة مسـلوبة الإرادة... كواقفة فى الصحراء تبحـث عن الطريق، فإذا سمعت أى صوت اتجهت إليه. معذورة!!

وأنها لا تسـتطيع أن تقول لأبيها شـيئا إلا إذا أخبرته قبل أن ترحل...إلى مكان فى الدنيا، أو مكان فى الآخرة!!

أمـا أمها فإنها تشـم. لأن الأمهـات اليقظات يشـممن رائحة البنات،ويعرفن ما يجول فى خاطرهن!!

وأخبرتنى أن الأرق سـيجننها، وأنها لا تنـام لا فى الليل ولا فى النهار وأنها أصبحـت كالمنزوفة، صفراء مثل القطنة المندوفة، هزيلة ليس فيها إلا عينان تبرقان. كل هذا فى فترة وجيزة.

وأخبرتنى أنهـا لم تقابلنى ليلة أمس، فى بيتهم، لأن الموضوع كان حتما سينكشف، لو أنها طاوعت نفسها وقابلتنى. كان لا بد أن تبكى عندما تقع عيناها على.. فماذا يكون الموقف؟!

وذكرتنى بشىء غريب لعلى لم أنتبه إليه ليلة دخولى بها إلى شقتى. ذكرتنى أنها عثرت على السلم عند أول درجة!! فى الظلام!! ثم وقعت!! فتشاءمت فى نفسها!!

لكنها عادت فذكرتنى بأننى أنهضتها من عثرتها حين أمسكت بها من تحت إبطها، ثم استأنفنا صعودنا!!

ثم ذكرت أنها خرجت فى الصباح التالى لليلة نفسها، لبعض الشؤون. فلما وصلت إلى باب الحارة رأت طفلة بنت خمس سنين فى ثياب مدارس الروضة واقفة تبكى فى خوف وقلق وانكسار، وقد ضمت إلى صدرها طبقا فارغا، وكان بكاؤها يثير الشفقة والدمع والضحك!! كانت تمثالا صغيرا ضخما للمسئولية. وفهمت طبعا أنها أضاعت شيئا. وقد كانت الطفلة قد فقدت القرش الذى ستشترى به الفول بتكليف من أمها. وأخرجت الطفلة إصبعها الصغير من الخرق الكبير الموجود فى أحد جيوب (المريلة) البنى.

فأخذتها عطيات وهى تضحك... واشترت لها الفول من نقودها ثم تركتها تعود وعلى خديها الصغيرين بلل دمع، ولا يزال فى صدرها بقايا شهقات.

وبعد أن خطت عطيات فى طريقها إلى حاجاتها عدة خطوات، بكت بأشد من دموع الطفلة، ولم تستطيع أن تواصل السير فقفلت راجعة.

وكان منظرها بعد عودتها إلى البيت يثير الشكوك.

هذه الطفلة الصغيرة فقدت شيئا صغيرًا فوقفت تبكى عليه ولم

تستطع أن تواجه المسئولية. فماذا تفعل الطفلة الكبيرة التى فقدت شيئا كبيرا؟!

(وإلى اللقاء. إن التقينا!!)

وبهذا ختمت رسالتها.

فهمست ثانيا وأنا أضعها من يدى «يا فتاح يا عليم». ثم تنهدت.

وكانت مخاوف كثيرة ترقد فى باطنى بعضها من شىء مؤكد وبعضها من شىء محتمل الوقوع. من المؤكد أن أمرنا سينكشف فى يوم ما، ومن المحتمل أن تهرب عطيات كما قالت فى رسالتها إلى مكان فى الدنيا أو مكان فىالآخرة.

وتخيلت أنها هربت إلى مكان فى الدنيا، فلم أجد موضعا لائقا بها إلا الإسكندرية... كأنها بائعة فى متجر كبير، أو كأنها جالسة على الكرسى العالى أمام صندوق إحدى الصيدليات، هاربة من الماضى خائفة من الملامة. وكأن (جمال) لقيها فجأة فتعرف بعد برهة على الفتاة المرحة منطوية بين أعطاف البائسة المسكينة فحملق فيها فارتمت بين ذراعيه باكية من الذئب الذى اعترض طريقها فى القاهرة. ثم سألت نفسى: «وهل أنا ذئب؟!... إذا كنت حيوانا، فهل أصلح ذئبا!» ومصمصت بشفتى!!

وإذا هربت عطيات إلى مكان فى الآخرة، فما هو هذا المكان يا ترى؟ وتصورتها فى الجنة فى ثياب الشهيدات، ثم تصورتها فى ثياب الساقطات، فتألمت من أجلها فى كل حالة.

تنهدت ثانيا كأنما لأجعل التنهد فاصلا بين فكرة وفكرة...
وأخذت أتساءل: ماذا يجب أن أفعل. وكيف أراها؟
وصممت على أن أعود إلى بيتهم مرة أخرى. وفى هذا المساء. أما الخطة فلم أرسم خطة.ما قيمة الخطط فى هذه الهيجاء؟! إن الخطط التـــى خابت أكثر جدا من التى نجحت، فى حياة الناس!! هناك، وبوحى من الوجوه التى تلقانى سأرتجل عملا. ما أفظع عينى أبيها الطيـــب، العاتبتين، حين يدخل فى جلباب وقلنســـوة، فصلتا من قماش واحد؟! وما...
وانقضى اليوم ثم هبط المســـاء. تذكـــرت أننى لم آكل وقت الظهر ففضلت أن آكل لقمة قبل خروجى. فرصة، فربما حدث ما لا يسر، فأغتنم ما قد أكلت.
وحين وضعت البيض المسلوق والجبن الأبيض على مقدمة المنضدة أمام الكتب طرق الباب، فســـرت وأنا ألعـــن المرضى وأهل المرضى، والمرض الذى يســـكن فوقى من أجل خاطرهم هم. وحين فتحت لم أجد أحدا، فرجعت وأنا ألعن أوهامى.
وتكرر الطرق بعد أن اجتـــزت الصالة، فرجعت مصمما على أن أرى الموضوع. وخرجت إلى البســـطة ونظرت فى كل اتجاه، شـــبحا واقفا فى ظلمة الســـلم، تحت، على بعد عشر درجات، وكان بياض وجهه واتســـاق عوده، لا يدع مجالا للشـــك فى أنها هى، فهمست من أعماقى: عطيات؟!... فسألتنى بصوت خافت وهى فى مكانها:

– أنت وحدك؟!

– نعم. تعالى!!

فاستأنفت صعودها، وكانت لابسة حذاء من الكاوتش، فلم أسمع وقع أقدامها على الحجر، وأقفلت الباب وكأنما الدنيا كلها ستدخل على إثرها.

وكانت فى حالة يرثى لها.

لم تكن كاذبة فيما وصفت به نفسها. كانت كالمنزوفة، أو كالقطنة المندوفة. غير أن هذا كله لم يستطع أن يهزم أنوثتها.

ورأيت عطيات الحاضرة أمامى فى صورة جديدة: تخيلتها امرأة تمشى فى القرية فى يوم شتوى كثير الوحل، وتلبس جلبابا طويلا يعوق من تلبسه، وتمشى حافية فى الطين، وتحمل على رأسها قفة من الدقيق ثقيلة، تعبث الريح بغطائها من فوق. وهى حريصة على أن تصل إلى الدار بهـذا الحمل المهم الثقيل الغالى قبل أن تتزحلق، أو أن يبعثـر الهواء ما فوق رأسـها، أو أن يرى الرجال سـيقانها العريانة. وهى بعد ذلك كله... تلهث. وتلهث...!!

وفتحت عينى كأننى أطرد حلما، واستحالت بلادتى إلى إصرار. ولما رأيتها جالسة على كرسى وهى مطرقة، وشعرها البنى المتهدل يوارى وجهها من جنبين، قمت فى صمت ووقفت خلفها، ورفعت رأسـها إلى الوراء وقبلتها. وقالت عيناها كلمة موجعة لم ينطق بها فمها:

– هل بقى ما أخاف عليه؟

فقلت لها:

– أأنت حزينة؟!

فبكت. فأخذت أجفف دمعها بكفى وأقبلها فى رأسها، كأنما لأثبت لها أننى أقبلها لغير المعنى الأول. وكان العشاء لا يزال على المنضدة وأنا بملابس المنزل. وبعد أن أفاقت قالت تخاطبنى:

هل تعرف لماذا جئت الآن؟... لا، طبعا (ثم سكتت قبل أن تستطرد) لأخبرك بأننى لم أطق أن أحتمل الذى حدث، وحدى. قلت لأمى!! وبكت من جديد وهى مطرقة...

وساد الصمت. وكنت جالسا على طرف المنضدة ونظرى جهة الشباك، فوقعت عينى على الأشجار المواجهة فى المدفن، وكانت ساكنة مرسومة. وتذكرت الحوادث... كلها بالتفصيل.

وكانت عطيات لا تزال تشهق وهى تنظر إلى أناملها المبلولة ببعض دموعها حين قلت لها:

– أنا سامع.

– قلت لأمى... آ... (ثم سكتت).

– هيه...

– وقد قالت لى: سيصبح الأمر خطيرًا إن تجاوز السر نطاق "الحريم" والأستاذ عبده أقدر الطرفين على تدارك الموقف.

آ... ثم... مسألة الهرب...

– مالها؟!

– تركتها الآن مؤقتا حتى أرى الموقف.

ولم أرد!! فساد صمت جديد. وملأت الجو فرقعة شديدة جاءت إلى أسماعنا من انفجار عجلة سيارة فاهتززنا فى أماكننا ثم نظر كل منا إلى الآخر. ثم استطعنا بعد فترة أن ينظر كل فى عين صاحبه وكنا قبل ذلك لا نستطيع كثيرًا ورفعت وجهها وهى جالسة وأنا نصف واقف ونصف جالس على زاوية المنضدة فرأيت المهرة المرحة مرهقة من التعب.

هتفت دون أن أعى، ولكن بحنان:

– عطيات!!

– نعم!!

– لا تخافى!! فقالت بانكسار ذليل:

– متشكرة!! ونظرت فى حجرها. فأخذتها بين أحضانى فاستسلمت قليلا ثم دفعتنى فى صدرى بكلتا راحتيها.

وكان فى يديها رفق وكان فى عينيها قساوة وكان على شفتيها المتقلصتين بوادر ملامة. فانكسفت!!

* * *

ولم يطل مكثها فانصرفت بأفكارها وتركتنى لأفكارى. واتفقنا قبل نزولها على أنى سأطلب يدها من أبيها. غدا، غدا عصرا، بلا تأخير.

وأذكر أنى تلجلجت كثيرا وأنا أتحدث مع والدها وكان الرجل

يتكلم بطلاقة وقد بدا كأنه لا يعرف شـيئا. ودخلت أمها قبل أن أفتح الموضوع فتذكرت شاهد الإثبات فى الجنايات الكبيرة. وبعد أن أعاننى الله ونطقت (بالكلمة) تبسـمت أمها فخيل إلى أن غيوما قد انقشـعت.. وقبلنى الرجل من جبينى وأنا خارج. ولم أر عطيات فى هذه المرة لكننى سمعـت فى الصالة حركـة غير عادية عقب نطقى (بالكلمة) أشـبهت حركة الإفطار فى مغارب رمضان تلك التى تعقب انطلاق المدفع.

وتناوبتنـى فى هذه الليلة إحساسـات كثيرة. أحسسـت كأننى غبنت فى صفقة كبيرة. أو كأننى اشتريت شيئا ما كان ينبغى لى أن أشتريه وحدى. وتارة كنت أحس كأنى خطفت، أو كأننى خطفت، أو كأنى أحمل خرجًا ثقيلًا مملوءًا بالحديد يكاد يخلع كتفى...

ولذلك ثرثـرت بالخبر لكل من لقينى. وقصـدت أولا وقبل كل شـىء إلى قهوة الكوكـب حيث رأيـت المعارف هنـاك مجتمعين يلعبون فألقيت عليهم الخبر المفاجئ فسهمت وجوههم وتوقفوا عما يعملـون، ثم ضحكوا كأنهم سمعوا نكتة، ثم مط حمودة عنقه وقال هامسا وقد بدت أسنانه الصدئة:

– «يا سلام!! وعملتها؟.. وقدرت؟!... وعطيات؟!... ألا خيبة الله عليك... لكن... مبروك... مبروك يا عم!!».

وانضمت قضية زوجين جديديـن إلى ملفات القضايا الكبرى فى محكمة الحياة.

* * *

٨

كانت لمسات الخريف ظاهرة على أوراق الشجر حين كنت ألقى نظرة من نافذتى على الأضواء البعيدة. ثم أقفلت الشباك بيدين فيهما ارتجاف طفيف وأرخيت عليه ستارا من (الدنتلا). المسكن لم يتغير ولكن الظروف تغيرت، فهناك على بعد مترين من الشباك يقوم سرير العروس وعطيات جالسة على حافته فى ملابس النوم، عارية القدمين تنظر إلى رجليها على السجادة ورأسها منكس إلى أسفل فيكاد ذقنها يلمس صدرها العارى.

وقلت فى نفسى وأنا أقطع المسافة بين النافذة والسرير: أما كان يستحسن أن نغير هذا المسكن؟! ثم اعترضت على نفسى قائلا: ولماذا؟!. وكنت قد استقررت إلى جوارها على الفراش فى هذه اللحظة، ولما تلامس جسمانا ندت منها شهقة صغيرة معها دمعة كبيرة ونحن فى النور فقلت وأنا أقبلها: لماذا تبكين.. لقد مضى وقت البكاء.

ثم تذكرت قصة حمودة وتذكرت قصتنا مرة أخرى.

وكانت عطيات مائلة إلى الصمت فى غير طبعها المألوف. كأنها تلبس غير أثوابها. فذكرت ساعة بدت كالعصفور المذعور الذى وقع فجأة فى الفخ ليلة حدث بيننا ما حدث. منذ شهر واحد!!

ومسحت دمعها بشفتى فسرت عنها هذه الحركة. وضحكت كما يضحك الطفل حين تدغدغه من تحت إبطه أو فى أسفل قدميه وكان رائعــا أن تبدو هكــذا وبقية الدمع عالقة بهــدب عينيها. ولم يكن صوتــى جميلا لكننى حاولت أن أغنى لهــا. ولم أكن أغنى مقطوعة لرجل وإنمــا غنيت مقطوعة لامرأة، نفس الأغنيــة التى أعجبتها فدستها لى فى طيات كراسة الإنشاء قديما!! غنيتها بصوت رجالى وغنيتها بصوت حريمى فضحكنا واختلطت ضحكاتنا.

ثم تلاقت أفواهنا فى قبلة مطمئنة فتذكرنا ليلة تلاقت فى الظلام ورنة إناء النحاس الذى وقع على البلاط حين كانت الخادمة تبحث عن الكبريت. أما الليلة فقد كان شــعاع أحمــر يلون أثاث الحجرة ويلقى على بياض جسمها الناصع لونا من الإغراء. وحاولت التلميذة المجتهدة أن تكون امرأة مجتهدة فى ليلتها الأولى التى تقدم النساء فيها شــيئا يحاولن وهن عذارى أن يدخرنه لهذه الليلة!! كنا فى الحقيقة مســئولين معا عن تبديده وضياعــه ولكننى حزنت عليه. ونحن أحيانا ننقم على أشــياء جنيناها بأيدينا حتى لكأنما جناها علينا غيرنا.

وكانــت وهى تحس بذلك بلا ريب وتحســه أكثــر منى فعملت جاهدة على أن تدفعنى نحو نفســها وأن تغرينى بســرعة حتى بدأ التصنيع فى أعمالها وكأنها امرأة جازت تجارب كثيرة.

ولم يطل بنا السمر... فاندمجنا فى التجربة...

ثم أشعلت النور من جديد وشـيء من الاشمئزاز يلون حركاتى. لكن الماضـى كان قد اتصل بالحاضر فى هـذه الآونة كما يلتقى نهر بنهر وجريا معا إلى المسـتقبل الغامض. وذهبت نحو الشباك المغلق ووقفت أحملق فى الستار المسدل وأتأمل العاريات اللائى رسمن على (الدنتلا)... "عرى فى عرى"... همسـت أقول هذا وأنا قلق النفس. ثم همسـت ثانيا: "ما أجمل المسـتور!!" كنـت كالطفل الذى لبس كسـوة العيـد قبل حلوله. فلما أعاد لبسـها يـوم العيد لم يجد لها رونقا.

أما عطيات فكانت لا تزال راقدة على ظهرها فى إزار هادئ فى لون أوراق الورد. كالأسيرة. تبدو ساقاها المكشوفتان وإحداهما فوق الأخرى وشـعرها البنى راسب على الوسـادة وإحدى ذراعيها على عينيها وليس على أكتافها إلا شريط الصدارى وحمالة القميص.

وكان سكوتنا قريبا إلى الوحشة وجلبة الحى على بعد مائتى متر تدخل إلينا كأنها الصدى. وتحركت راجعا إلى الفراش فأحسسـت أنهـا تبكى فأطفـأت النور ورقدت إلى جنبهـا. أردت أن أتيح لها فرصـة تعبر فيها عن مخاوفها بصراحـة وإن كنت فى الحقيقة قد استحلت منذ دقائق إلى رجل قليل العطف نوعا على الخطأ المشترك فقلت لها ونحن فى الظلام بلهجة غير عامرة بالحماسة:

– ألم نتفـق من قبل علـى أن زمن البكاء قد ولى؟! فلم ترد على. فسكت لحظة وضعت فيها كفى على شعرها وهى صامتة ثم قلت من

جديد وأنا أتكلف حرارة يحتاج إليها الموقف:

– كنا نحلم بهذه الليلة، فهل يحزننا أن يتحقق الحلم؟!

فقالت بصوت بدا فى نبراته جفاف حلقها:

– عبده... أنا خائفة.

– من ماذا؟

فلم يجئنى ردها فوضعت يدى على شفتيها المضمومتين ثم أعدت عليها سؤالى:

– من ماذا يا عطيات؟!

فقالت وهى تتنهد:

– من أفكارك. أنا خائفة أن تتغير!!

فأجبت وأنا أتكلف الحماسة:

– لا تخافى شيئا.

– صحيح؟! هل تقسم؟!

– صحيح. وأقسم.

ووضعت فمى على فمها بعد أن قلت هذا وأنا واثق أن فيما قلت شيئا من الزيف لأننى لم أكن مطمئنا إلى المستقبل. وبدأت أنفاسها تنتظم وهى على عتبات النوم وكانت تقع على خدى كأنها تأتى من منفاخ صغير ناعم. على حين كنت أنا لا أزال أفكر فى طلبها أن أقسم. كانت فيه أشبه بالطفلة تستحلف أباها على كل طلب، وبدت

فى طلبها هــذا أكثر حداثة وأدنى إلى الطفولة. فتنهدت ومصمصت بشفتى. أما هى فكانت قد استغرقت فى النوم.

* * *

ولما دخلت مدارس النصر للمرة الأولى بعد زواجى، اســتقبلتنى وجوه عابســة، وأعين قلقة، كأنها تحمل سرا. حتى الذين هنأونى خلت عباراتهم من الحماس، ولم يسخر حمودة. ولم يرسل نكتة، فلم أر بدا من أن أســأل: ماذا هناك؟ فعلمــت أن الناظر مات اليوم فجأة، وأن الذين قابلونى من إخوانى عز عليهم أن يفجأونى بالنبأ، وعطــر العروس يفــوح من أردانى. لكن تحرجهــم زال بعد الكلمة الأولى، وجعــل حمودة يقــص النبأ بالتفصيل بوجــه يتعاقب عليه العبوس والابتسام، كأنه سحابة تبرق:

كان بيننــا فى غاية مــن الصحة والمرح، وقد تجــرأت فأخذت ســيجارتين معا من علبته حين قدمها إلى، وكان يتحدث عن رغبته فى بناء مقبرة جديدة، لأن منــازل الآخرة يجب أن تكون أغلى من منازل الدنيا. ثم طلب فنجالا من القهوة، ثم أبدى رغبته فى تأخير البنــاء حتى يتم تجهيز بنته. وأصلح بين اثنين من المدرســين كانا متخاصمين منذ شــهر تماما، ودعاهما للغداء على مائدته آخر هذا الأسبوع، ثم انصرف آخر النهار.

وجاءنا خبره منذ نصف ســاعة يا أستاذ عبده. مات وهو جالس

علــى مكتبه فى البيــت، دخلت بنته العــروس، فلم تجد منه إلا شبحا...

فقال واحد منا:

– آه.. دنيا!!

وقال ثان:

– استراح . وقال حمودة:

– من رذالة المفتشين على الأقل!!

وقال رابع:

– دعوا العريس فى أحلامه. ولا تزعجوه بأخبار الموتى.

فتذكــرت أشــياء كانــت تربطنى بهــذا الرجــل أهمها الحب والاحترام. وتذكرت رأسه المحلوق (بنمرة واحد) ووجهه الشديد الحمرة يوم اســتبقانى وحدى فى حجرة المكتــب، ليقص على نبأ الخطابات المجهولة..

تلــك التى كتبتها يد حريمى لتنبه أذهان أولى الأمر فى مدارس النصر، إلى وجود علاقة غير عادية بين جمال وعطيات!!

فشــعرت أن حملا جديدا من الحزن يهبط علــى قلبى... يهبط رويدا رويدا، كأنه سحابة مشحونة. وانبعث الماضى بغتة فى ثياب غير نظيفة. وأنا لا أزال حديث عهد الزواج. وفرت من عينى دمعة أكــبروا فيهــا وفائى، وإن كنت لا أعرف – وأنا صاحبها – ســبب مولدها، وروحت آخر اليوم كئيب النفس، وعلى ملامحى الهادئة

سـكون زائد. وألقيت نظرة على الثغرة المفتوحة فى سور المدفن قبل أن أدخـل من بـاب البيت، وتذكرت ليالى الخيـالات وأنا ألقى فى الظلام نظرات على العشـاق المتعثرين بين جذوع الشجر. ثم صعدت السـلم وحملقت فى الدرجة المكسـورة التى كبـت عليها عطيات، فانكبت على الأرض.

ووجدت فى البيت عشـاء جاء من عند أمها، وكان طازجا يغرى بالأكل. وكانت عطيات تأكل وتثرثر، وتشـكو من كثرة الخبط على باب الشـقة بأيدى أهل المرضى الذين يخطئون حين يطلبون الممرض السـاكن فوقنا، ثم انتقلت إلى تفوق أخيها فى المدرسـة. ووثبت إلى ذكر الشاب الذى تقدم لبنت عمها، وإلى امتيازه فى مركزه وأخلاقه، فنظرت إليها من بين أهدابى نظرة لم تكن مريحة، لكنها فيما أظن لم تفطن لها. ثم انتقلت إلى انحراف صحة أبيها من كثرة التدخين، وأن طبيب الوزارة نبهه إلى وجوب الإقلاع عن هذه العادة. ثم قدمت إلى ورك دجاجة، وأقسـمت على أن آكلـه فأخذته فى صمت، على حين قامت هى تبحث عن بقايا فاكهة فلم تجد. فاكتفينا بما أكلنا. ولما انتهينا شـرحت لها سـبب وجومى، فأخبرتهـا أنه انتقل إلى رحمة الله!! فهمست وفى صوتها بحة:

– الناظر؟!

– نعم، هو!!

– لا حول ولا قوة إلا بالله. كان رجلا طيبا.

فرددت بشيء من المغالطة:

– وهل الطيبون لا يموتون؟!

فقالت فى ابتسامة وفى عينيها بوادر دمع:

– ليس هذا قصدى. بل إننا نحزن عليهم. كنت أحب هذا الرجل!! فذكرتنى هذه الكلمة شخصا آخر لعلها كانت تحبه!!

وحين أوينا إلى فراشنا لم أستجب لبوادر الرغبة التى لمعت فى عينيها قبل أن تطفىء النور، ولا لمقدمات الحب التى بدت فى حركاتها ونحن فى الظلمة، فلم تلبث أن سألتنى:

– هل يؤلمك شيء؟ أنت غير طبيعى يا عبده!!

فقلت بفتور:

– نعم.

– مم؟!

– لم أسترد حالتى العادية منذ سماعى خبر وفاة الناظر. لقد كنت أحبه!!

وانفتح باب الحديث على مصراعيه. وحين جمع الله بينى وبين عطيات جمع بين النقيضين. المتكلمة التى تدنو إلى الثرثرة، وقليل الكلام الذى يدنو إلى الصمت. وانفتحت وهى تطوقنى بذراعيها تذكر ماضيها القريب الذى سمته وهى تضحك «أيام زمان»، وتذكر الناظر الفقيد ووفاءه وذكاءه. نعم وذكاءه!! فسألتها وأنا لا أزال فاترا:

– وهل تعرفين آية من آيات ذكائه؟

– نعم؟، اكتشـفت شيئا أيام كنت فى المدرسة ونبه إليه المدير. كان هناك كثير من الشكاوى المجهولة والمقالب غدت مدارس النصر مسـرحًا لها دون أن يعرفوا اليد التى تدبرها حتى اكتشف المرحوم هذه اليد.

فسألت متجاهلا:

– يد من؟ فاندفعت مجيبة:

– يد الآنسة فاطمة. واستغرقت فى الضحك.

وفى الوقت الذى كنت أستعيد فيه تفاصيل الخطاب الذى سطرته فاطمة حسـبة لوجه الله فى شـأن جمال وعطيات، كانت هى تعيد علـى ما سـبق أن علمنا به من أنها لقيت ما لقيـه القرد من النجار مـن إحدى الأمهات، حـين تدخلت تدخلا غير مشـروع بين فتاة وحبيبها فغضبت الأم من الآنسة واشتبكت معها فى عراك...

وانتهت من قصتها وانتهيت من أفكارى وتوقفنا فى وقت واحد وختمت حديثها بقبلة ثم سألتنى بنعومة:

– عبده... أما تزال غير مرتاح؟!

– نوعا.

– دع الأفكار السود. لا تجعلها تسيطر عليك!!

– ليتنا نستطيع!!

– نحاول إذن!!.. وإلى أين ذهبت؟!

– إلى الماضى!!

فضحكت وهى تقبلنى، ثم عادت تستفسر:

– أى ماض. البعيد أم القريب؟!

– القريب!!

– ومالك تقولها هكذا بحسرة كأن فيه ما كان يؤسف عليه؟!

فناديتها:

– عطيات!! فأجابت مذعورة:

– نعم!!

– عندى سؤال. سؤال واحد أرجو أن تجيبى عنه بصراحة. وأنا أعرف أن الصراحة من مزاياك. فعرفت اضطرابها من حرارة نفسها وقلقهـا من صوت ريقها، وتراخت ذراعيهـا الملقاة على كتفى، ثم قالت:

– تفضل. فسكت برهة لأستجمع قواى.

– ليس من الضرورى أن يكون مستقبلنا امتدادا لماضينا..

– نعم.

– و...

– نعم!!

– أقصد أن أقول: أنك فتاة طيبة. و...

– نعم!!

– إن لكل واحد من الناس هفوة، وأنا شخصيا (فسمعت وجيب قلبها فى صدرها اللاصق بى) أنا شخصيا نادم..... (فقالت بلهجة الظافر):

– على هفواتك؟!

– يـا ليـت!! نادم على أنه لم تكن فى هفـوات كبيرة، لأحس نظافة التوبة، ولذة النظافة، حين أقصها عليك معترفا. لم يكن فى هفوات تذكر!!

– آ... هيه...

– وأنـا أظن أن الاعتراف بالتفاهات على أنها جرائم، يترك فى نفس السـامع شـكا وقلقا. وكالذى لقى مليما فى الطريق فنادى: يا من ضاع منه مليم.

فسمعتها تضحك ضحكة مشبوهة. ولم تكن من القلب، ولا فيها مرح. فاستطردت:

– بس، هذا هو كل ما عندى!!

وخيم على جونا سـكون قصـير كنت أسمع فيـه وجيب قلبها مختلطا بشـىء مـن الندم. وندمى أنا على تورطـى فى هذا الكلام. فهناك أشياء يحسن بنا السكوت عنها، حتى ولو كنا نعرف أمرها. ثـم إن جوابهـا لن يخلوا من أن يكون اعترافـا أو إنكارا، فحدثنى أنت... أى الاثنين أكثر راحة لقلب المتجسس؟!

ومسـحت على شعرها كأنى أعيد إلى نفسها الطمأنينة، أو كأنى أوحى إليها بتفاهة ما قلت، على أن نفسـى كانت متعطشـة إلى أن تسمع، وخائفة فى وقت واحد.

كانت عطيات تتنفس بسـرعة، وظلـت كذلك لمدة دقيقة، أدنت

بعدها فمها من فمى، حتى لم يبق بين شفاهنا ما يسع الدبوس، ثم همست تقول:

– عبده!!

– نعم!!

– أنا لم أزل إلا معك. وأنت... واثق من ذلك.

وسكتت متعبة كأنها جرت شوطا على طريق غير ممهد. وظللت لائذا بصمتى، ثم همست فى شبه مزاح:

– أنا أعرف هذا جيدا يا حبيبتى، وأنا لا أتحدث عن الزلات.

– إذن عم تتحدث؟!

– عن الحب!!

– الحب!!

– الحب!!

– آه...

وخيـم الصمت مرة أخرى. ومرت بأناملها على شـعرى، وتشـبثت بخصلة منه، وجذبتها كأنها تنقذ غريقا. فعرفت أن تيارًا سريعا يتدفق فى داخلها.

كنت فى هذه الليلة أنانيا أحمق ألقى شعاعًا وراء شعاع على ركن يجب أن يظل فى الظلام . وعيوننا تتطلب الظلام بدافع من المصلحة يتساوى فى بعض الأحيان مع تطلبها النور، كنفوسـنا حين تتطلب الدموع بدافع من المصلحة، ويتساوى فى بعض الأحيان مع تطلبها الضحك.

غير أنى كنت مدفوعا بلا وعى، لأنى عشت معها فترة من الماضى كنت فيها غير مستريح. كنت محبا غير واثق، والحب بلا ثقة نار ودخان!!

وعادت عطيات تهمس من جديد:

– آه... أخيرا أدركت قصدك. إنك تقصد... جمال أفندى، أليس كذلك!!

فأجبت متخابثا:

– ربما... على أننـــى لا أقصده هو بالذات، بل أردت أن أعرف هل كان فى حياتك حب فعال، قبل أن نتحاب يا عطيات؟!

– كان جمال أفندى يحبنى كتلميذة.

– كما كنت أنا أحبك؟

وتحدد الجواب فارتبكت المســكينة وتقلقلــت فى الفراش وقامت جالسة، وظللت أنا كما كنت ممدودا، ولما لم ترد، أعدت عليها سؤال:

– هل كان يحبك وأنت تلميذة مثل حبى لك أو أقل أو أكثر؟

– لا أعرف بالضبط. لكن... على كل حال... آ... وهذه الأسئلة... لن تورثنا إلا المتاعب!!

وقامت إلى دورة المياه ثم عادت تشــكو مغصا وتمســك بطنها من جنبه. وخيل إلى حين رأيتها فى النور أنها جد شاحبة، وأن شفتها الســفلى عليها علامات الهزيمة، وأن لونا بنفسجيا فاتحا يصبغ ما تحت عينيها.

ولم يستأنف بيننا الحديث. ونزعنا منه صوت عراك وضرب وشتائم متصاعد من الحارة، وبين كل أولئك عدة صرخات من امرأة. وجرينا إلى الشباك وانحشر جسمانا فى فضائه ونحن بملابس النوم، فرأينا عند الثغرة المفتوحة فى سور المدفن كمينا من أشخاص تربصوا لعشيقين نفذا إلى الداخل واشتبكا معهما فى عراك، ولم يكن هناك مخرج للعشيقين إلا من حيث دخلا. وتجمع الخلق وتشعبت آراؤهم فى الموقف، أما الفتاة فكان حالها يدعو إلى الرثاء وإن استبسل الشاب فى الدفاع عنها وعنه.

ودخلت عطيات توحوح بعد لحظة، لأن الجو كان مضبا مائلا إلى البرودة وتركتنى فى موقفى. حتى إذا ما انتهت المعركة وتفرق الجمع، وقال أحد الكهول «إن الله حليم ستار» وأخذت الأصوات تتباعد – أقفلت النافذة وأسدلت ستار الدنتلا ومشيت إلى الفراش فخيل إلى أن عطيات قد استغرقت فى النوم.

* * *

٩

لا أستطيع أن أزعم أن الماضى قد انتصر عليها...

لم ينتصر عليها بعد، لأن نزعات الحب فى قلبى كانت أقوى من أى عامل!!

أما اللحظات التى أكون فيها طليقا من تأثيرها بعيدا عن كهربتها، فإنى ربما نقمت عليها. لكن.. فى الليل تتلاشى هذه النقمة، لأنه من النادر أن تتظابق أعمالنا مع أفكارنا، حتى فى خطوط حياتنا الرئيسية!!

وكانت تحب الحياة...

ثيابها زاهية. وصوتها مرتفع. وضحكتها رنانة.

خرجت من نطاق العذارى، واختفى استحياؤهن فيها مع الزغب الذى كان منتشرًا عند منابت الشعر، فظهرت فيها حرارة حريفة، يعرفها الرجال.

إنها تحب الحياة. والحياة عندها حركة وضجيج.

ولما كانت وهى عذراء تسير بين البنات كما يسير ذكر الوز بين القطيع العائد من البركة – فإنها صارت فيما بعد أكثر حركة، وأشد ضجيجا!!

قطعة فسفور. حية إنسية لينة تطوق بكل ما فيها. تأكل وتتكلم

وتضحك، وفى العينين الصادقتين دمع، وعلى الشفتين السمينتين ابتسام، والمعلقة تخبط فى جدار الصحن، وقدمها تعبث برجلى تحت المائدة، وأردافها قلقة على الكرسى... هذا كله فى نفس واحد! !وأصغى وأنا صامت، وأتملى وأتأمل وأتعجب من المقادير! !

ولم تكن حياتنا تخرج عن نمط واحد إلا ما لا يدخل فى حسابنا أودعها فى الصباح، خارجا إلى المدرسة، وألقى إليها نظرة عند ملف السلم قبل أن أغيب فى عمقه، وتكون واقفة تبتسم داخل الباب ناظرة من الفتحة، ثم أرفع رأسى إلى الشباك فى الحارة، فأراها قد وصلت إليه وأطلت على. ثم أنشغل فى مدرستى وتنشغل فى البيت. أنا إذا كان هناك فراغ ما وقت النهار، فإنها كانت تقضيه عند أهلها، وتعود قبل رجوعى، وقد نلتقى فى الطريق.

وكنت أقطع وقت العصر نائما دائما. أما هى فكانت تمضيه فى القراءة. ولا أستحى أن أقول إنها كانت تقرأ أكثر منى، فاضطرتنى أن أتردد على دار الكتب لأنتقى لها ما تقرأ. فإذا ما دخل الليل، ذهبت إلى قهوة الكوكب، ولكن فى أحيان قليلة، لأن الميزانية المحدودة لم تكن تسمح بالإسراف. ثم نتناول عشاء نجلس بعده إلى مكتب فى حجرة النوم نفسها، فتقرأ لى كراسات الإنشاء كراسة كراسة، ثم تدعنى أضع الدرجة. وكثيرا ما تقترحها على، فإذا ما بدأت عملى فى التطبيق، لمت نفسها وخرجت من الميدان وهى تضحك، وبحثت عما تقرؤه.

ويسكت الليل ويهدأ الحى فلا يبقى إلا الصدى الآتى من بعيد ووقع أقدام تأخرت فى العودة، على الرصيف المبلط فى صف البيوت، كل هذا ونحن مستغرقان كل فى عمل. وبعد وقت لا يكون فى الغالب قصيرًا، ألقى القلم الأحمر من بين أصابعى، تلك الأداة التى تستل نور عين المدرسين برفق، وأتمطى وأمد ساقى اللتين يخيل إلى أن التجمد سيلحقها فتقفل عطيات كتابها وهى تبتسم وتلمع عيناها بالرغبة مخلوطة بالنوم ثم تقوم فتغير ملابسها وترتدى غيرها أكثر شفافية وأقل سترًا. ونستلقى على الفراش فتبدأ فى الكلام. فتقص على طرفا من الحوادث التى قرأتها أو الشخصيات التى مرت بها. ويتوهج الفسفور فى ظلمة المخدع وتسرى الحرارة الحريقة فتدفئ الفراش فنكف عن الكلام وقتا ما. ثم نستغرق بعد ذلك فى النوم!!

وهكذا هكذا... كأنه جدول حصص. مشت حياتنا فى الليل والنهار لمدى شهور عدة. حتى جاء فصل الصيف.

وكنت أتلقى الرسائل من أمى من حين إلى حين وأعلم أحوالهم باختصار. لكننى كففت عنها كفى بعد أن صرت زوجا فلم أقدم إليها معونة ولم أبعث لأختى بمنديل ولا جلباب. حتى إذا ما انفضت جموع التلاميذ وأعلنت النتائج وأقفلت المدارس وبدأ التراب يخيم على الأدراج الخالية فى حجرات الدراسة، فكرت جديا فى أن أسافر إلى القرية.

قلت لعطيات: هل تجيئين معى؟ فقالت بحرص على المصلحة: أنت تعرف دخلنا يا عبده فلا داعى للمصاريف. سافر وحدك!!

– وأنت؟

– سأقيم فى منزل أبى حتى تعود بالسلامة!

– أخشى أن تضجرك الوحدة.

– سأحس قطعا بثقلها على... لكن... سافر!!

وكان فــى عينيها النديتين وداع بديع تجســم فــى نظرة طويلة تنبأت بالشــوق. وكانت فى هذه الليلة ترتدى ثوبا بلا كمين أحمر جدا، يعض بجوع فى إهابها الأبيض، وكانت قد نسيت فى شعرها منذ الصباح شــريطا من لون الثوب، فأحسســت حــرارة الماضى فى باطنى أيام كنت أراقبها وأنــا فى الفصل أو فى الحديقة، وظاهرى ثلج وباطنى شــعلة، وأصحح كراســتها وأقيس كلماتها، وأمر على بيتها فأرفع رأسى إلى شقتهم، حتى أصطدم بأحد الناس.

وانبثقــت عطيات تثرثر، بنفس الطريقة التى حدثتك عنها منذ قليل، وكل شــىء فيها يتوهج ويترقص من الحياة الزائدة الكامنة فيه:

(ســافر. ســافر لتحس نحوى بشىء من الشــوق. جرب. جرب البعد، نم ليلة أو ليلتين وبجانبك فضاء. ثم لاحظ ماذا ســيدخل إلى نفسك من الفضاء المجاور...) وضحكت.

(ربما كان راحة، وربما كان تعبا... هئ. هئ. هئ).

وأخـذت تحل الشـريط الأحمر المعقود على شـعرها ورأسـها متطامـن بين ذراعيها العاريتين فى فتنـة جديدة... كأنى لم أرها فى الشهور السالفة. فتيقنت أن الحوادث تجدد قديمنا، وأن البعد يحرك سكوننا فيقتل السأم بهذه الحركة.

ولما استلقينا على الفراش توهج الفسفور، فكففنا عن الكلام وقتا ما. ثم استغرقنا بعده فى النوم!!

وبعد الشروق بقليل كنت متأهبا للسفر.

وقبلتها خلف باب الشقة قبلة طويلة بعد أن أقفلنا النوافذ وقبل أن نفتـح الباب وأوصيتها بنفسـها وأوصتنى بنفسـى وأكد كل منا لصاحبـه أنه هو الأهـم وأنه لا يجب أن يفكر فـى الطرف الثانى أكثر من اللزوم. ثم هبطنا السـلم معا وافترقنا عند الباب الخارجى وتلفتنا عقب كل خطوة.

ولما وقفت سيارة الركاب العامة المزحومة بالفلاحين على الطريق الزراعى القريب من بيتنا فى القرية – نزلت منها بعسر وأنا أحمل لفة وكيسـا. كان فـى اللفة ملابس نومى وفـى الكيس عنب وتين. وبعد أن لمسـت قدماى أرض الطريق الصغير المؤدى إلى الدار تبينت أن الفاكهة قد اسـتحالت إلى (شـربات) من حرارة الجو وكبسـة الـركاب. وكان ذلك مثارًا لضحـك أختى ورثاء أمى حين وصلت إلى البيـت. وقبلتنى الأم وكانت مريضة كما هـى دائما، وحملقت فى وجهى وقالت عيناها السليمتان: ماذا فعل الزواج بك؟! ثم سألتنى

زينب بحسن قصد: هل كنت مريضا؟! فأكدت لهما أن مخبرى خير من مظهرى وأننى أحس تماسك الصحة. لكن نفسى انقبضت لهذا وتذكرت مسلكى فى القاهرة منذ زواجى وأننى مرهق وأن امرأة حادة العاطفة ذات حرارة حريفة تقاسمنى فراشى وأننى فى سن واسعة الطاقة قابلة بطبيعتها للمط كأنها كاوتش جيد!! لكننى تنهدت. وسمعت إلى أمى وهى تقص على ملخص أحوالها ثم اندمجنا فى الحاضر.

وكانت تذبح لى دجاجة كل يوم، ولم تعف من أجل حبها بعض دجاجات تمدها بالبيض. وسمعت خبرًا وليدًا من فمها هو أن خطيبًا لزينب قد يدق علينا بابنا فشكرت الله. وأمضيت الأيام الجديدة بنفس الطريقة القديمة التى كنت أمضيها بها فى الماضى: ضحوة النهار فى قراءة الصحف والتحدث إلى الفلاحين فى السياسة والتعليق على الجرائم فى القرية أو حولها أو التى نسمع خبرها فى الصحف. أما وقت العصر فكنت أقضيه فى الحقول.

ولم أرجع إلى القاهرة بالسرعة التى كنت أتوقعها، فكتبت إلى عطيات أخبرها بأنه من المحتمل أن أغيب فترة أخرى. وكان ذلك بسبب انتظارنا لحادث الخطبة وبسبب التقدم الصحى الذى لحظته فى نفسى.

ولم يتقدم الخطيب لسبب مؤقت. ولم أحس فراغا إلى جوارى وأنا راقد فى الليل وبدأت أسمع نصائح أمى فيما يتعلق بمعاملة

الزوجات وألمح فى عينيها الصدق إذا تجلت بصفة الأم، والخداع إذا تجلت بصفة الحماة. سنة الطبيعة التى لا تتغير!!

وكان وداعى لأمى حارا أكثر من المألوف. غير أنى أحسست وأنا فى القطار بانفصال مفاجئ عما كنت فيه وكثير من الشوق إلى عطيات. وأمضيت الوقت فى قراءة قصة بوليسية من تلك التى تجعل الأعصاب وكأنها تحت سيطرة الكحول. حتى فطنت إلى زفير القطار فى محطة العاصمة.

وكان الليل قد هبط تماما وقت وصولى إلى الحارة وطقس اليوم مائلا نحو اللطافة حتى رأيت ذوائب الأشجار فى الفضاء المقابل تهتز كالمروحة فى يد السكرى. ولم أر نورًا يلمع من نوافذنا فرجحت أن تكون عطيات فى بيت أبويها حتى الآن. ثم رأيتنى أصعد السلم معللا نفسى بأنها ربما كانت فى المطبخ وأهملت فتح النوافذ، غير أنى رأيت قفلا ضخما يتدلى من الباب، والشراعة الزجاجية العلوية مظلمة تماما فوقفت جنب الدرابزين على البسطة فى عمق السلم، كما أنظر فى البئر، ثم استأنفت نزولى.

وقبل أن أصل إلى الدرجة المكسورة قرب الأرض سمعت وقع حذاء عرفت فيه مشيتها فسكنت فى مكانى كأننى متربص حتى رأيت بياض وجهها متميزا فى الظلمة، ورأت شبحى فهتفت بشىء من الخوف:

– من؟! فأجبت وأنا أغالب ضحكة:

– عبده!!

– عبده؟!.. وهكذا صدق قلبى!!

وكنت أقبلها قبلة كلما صعدنا درجة وترد إلى مثلها. حتى إذا ما استقر بنا الجلوس بدأ كل منا يسرد موجز ما لقيه فى الأيام التى قضاها بعيدًا... فى إطار من الشوق والحب واللهفة.

وكان معى لحم ودجاج فقامت وأنضجت عشاء ووقفت جنبها فى المطبخ نحكى ونثرثر. وتعشينا فبدأت السهرة... وانتهت ككل مرة... ثم استغرقنا فى نوم عميق!!

وبعد يومين اثنين تماما جاء أول شهر جديد فعاد كثير من الزملاء الغائبين إلى القاهرة ليقبضوا مرتباتهم. وكان حمودة غائبا، فخمنت أنه راجع وتمنيت أن أراه، فقد أحسست بشوق إليه.

وهذه هى الدوافع التى ساقتنى إلى قهوة الكوكب فى هذا المساء. كنت أنقل قدمى بحذر على الأرض المرشوشة وأنا على بعد أمتار من القهوة أستمع باسما إلى ضحك الزملاء الذين جمعهم أول الشهر فى الهواء الطلق أمام المقهى، أستمع إليهم وأنا سائر ويداى فى جيبى بنطلونى وأصوات طفيلية من صنجات بائع العرقسوس وصرير الترام عند المنعرج تدخل إلى سمعى.

وقلت لهم وهم ملتفون حول المنضدة:

– السلام عليكم. (ومططت النصف الأخير من التحية).

فردوا السلام بضجيج وتصفيق وتهليل وفرح. وغلب على كل أولئك صوت حمودة وهو يقول:

– عبــده؟.. أوه... ألا خيبة الله عليك.. مالك صرت هكذا يا ولد النص بالنص. يخرب بيتك!؟

واحمــر وجهى فلم أرد وتشــاغلت بالحديث مــع غيره. وبدأنا نتكلم عن شئون التعليم وعن حركة التعيينات المنتظرة فى المدارس الأميرية وعن بعض إخواننا من الحاضرين الذين قد يلحقهم الدور. ونغص عليهم أمانيهم أن التعيين ســيكون فى الصعيد. وقال مدرس أنيق وهو يضغط النار على حجر الشيشة ويشير بعنقه نحو الشارع:

– يا سلام!!.. لقد ظهر!!.. «ظهر الفساد فى البر والبحر»!!

فنظرنا فى اتجاه نظره وهتفت أفواهنا كلها: جمال..؟!

وارتفــع ضجيج مختلــط جديد ظهر فيه صوت حمــودة واضحا جليــا وعانقوه فردًا فردًا وأنا واقف فى انتظار دورى وحلقى جاف ووجهى محقن وقلبى يخفق وكفى ممدودة متحيرًا كيف أســلم؟!.. أأصافح أم أعانق؟ لكن (جمال) عانقنى بشــوق وشــد على كتفى بين ساعديه الرياضيتين كأن فى داخله نارًا. وعرقت فى حضنه وهممت أن أدفعه حين خيل إلى أنى أرى فى عيون من حولى بريقا غير عادى تعرف معناه. وانقطع الضجيج والتففنا حول المنضدة.

وأشــبهت طريقتنا فى الكلام فى هذه الليلة طريقة التلاميذ فى فسحة الخمس دقائق، حتى دعانا أحدنا إلى النظام: «هس»!!

وجاء ماســح الأحذية يخبط على الصندوق بالفرشــاة فأســلمته قدمى لأنظر إلى تحت وانعزلت عنهم وجعلت أتأمل حركات الرجل

وهــو قابع على الأرض، لكن (جمال) لم يدعنى فى همى بل اقترب منى بحركة مكشوفة وجرجر كرسيه حتى جاورنى وقال وهو يضع ذراعه على كتفى:

– ألف مبروك. فقد علمت بالخبر السعيد.

فأجبت وعينى على علبة ورنيش سوداء:

– العاقبة عندكم...

فجاء صوت المدرس الأنيق الماسك بلى الشيشة يقول فى سخرية:

– هئ. لا. جمال رجل عاقل!!

فرد حمودة فى دعابة:

– لكنه ابن مجنون. فارتفع ضحك الجماعة ولم أفهم لشــرودى قصد حمودة حتى رد عليه جمال قائلا:

– وأبوك؟.. ألم يتزوج مثل أبى؟ ألا خيبة الله عليك يا حمودة!!

ثم اســتتب النظــام. وطلب بعضهــم (طاولة) وصفــق الأنيق ليدفع الحساب ليقوم فيلحق السينما. وفرغ ماسح الأحذية من عمله وخبط على الصندوق بالفرشــاة وجعل يجمع العلب وينظمها فى الخانات. ووضعت يــدى فى أحد جيوبى أفتش عن قرش ثــم أعطيته له وأنا واقف على قدمى.

قال أحد الجالسين:

– إلى أين يا أستاذ عبده؟. لماذا أنت متعجل؟!

فقال ثان:

– أعمال!!

وقال ثالث:

– بل ابق وقتا آخر.. فالليل طويل.

فتعللت بصداع طارئ وتركتهم يستنبطون ما يشتهون وألقيت عليهم السلام بقلب فاتر ونفس مكسورة ثم أوليتهم ظهرى وصوت حمودة يتابعنى كأنه يد تدفع بى فى عرض الشارع:

– عليكم السلام والرحمة.. ألا خيبة الله عليك يا أستاذ!!

***

عثرت مرتين فى الطريق: إحداهما فى حجر، والثانية فى ذيل بنطلونى!! وعلمت أننى أترنح حين سمعت أحد طفلين يهمس لصاحبه عند باب إحدى الحارات ويقول: «أفندى سكران» وتنهدت ليخف ما بى. ودخلت حارتنا فألقيت نظرة على الثغرة المفتوحة فى سور المدفن ومططت شفتى باشمئزاز، وعثرت فى درجة السلم المكسورة كأننى لا أعرف مكانها!! وحين طرقت باب المسكن كان انقباضى قد بلغ القمة. قالت عطيات وهى تفتح الباب:

– رجعت مبكرا على غير انتظار!!

– عندى صداع.

وكان صوتى صوتا فحسب، خاليا من كل معنى مقفرًا من كل تعبير. فقالت لى:

– سلامتك. وأخذت رأسى بين كفيها. ثم استطردت وهى تبتسم:

– لكنك نسيت شيئا.

– هو؟

– العشـــاء. العشاء يا عزيزى وإن كنا فى آخر الشهر. لم تحضر معك الليلة شيئا تتعشى به؟

فقلت كأننى مجهد وأنا أتهالك على كرسى:

– آه... معذرة... أنزل ثانية فأشترى ما تشائين.

– وأنت؟

– لســت جائعا، ليس عندى شهية!! فردت وهى تفتح عينيها الواسعتين:

– إذن لا داعى لنزولك... أى لقمة فى البيت سأجدها وآكلها... لا تتعب نفســك.وبدأت أخلع ثيابى وأنا ساكت، وسمعتها تضحك ببال خال بعد أن لبست جلبابى، فتعجبت، لكنها فطنتنى إلى أننى لبســته مقلوبا حتى كان ظاهر الخياطة، فقلبت المقلوب مرة أخرى ودعوت الله أن يعدل حالى. ولما طال سكوتى وانقباضى تسربت إليها العــدوى ففارقها المرح وخبت حركتهــا كما تخبو جمرات المدفأة، وبدا على وجهها قلق. أو هكذا تخيلت.

وتثاءبت، فتثاءبت. فقلت بصوت كان صوتا فحسب:

– ننام؟ فأومأت بأجفانها:

– ننام!!

وتمططت فى الفــراش راقدًا على ظهــرى وتركتها تطفئ النور قبل أن ترقد. ومضت لحظة صمت. كان صوت الحى يأتى إلينا فيها متوســط الحركة ووقع أقدام راجعة تطقطــق على الرصيف. خمس دقائق أو تزيد قليلا. ثم أحسست أن كفها فى طريقها إلى شعرى، ثم شــعرت بأناملها تعبث به وبجسمها يدنو من جسمى فلم أتحرك. قالت بهمس:

– عبده!!

– نعم.

– نمت؟

– لا.. حتى الآن.

– تعبان؟

– قلت ذلك قبل ذلك. وكان ردى لا يخلو من الرداءة. فقالت:

– طيب... ولماذا أنت غاضب؟!

– أنا؟!

– لا... أنــا!! وضحكت فى شــبه مــرح. وألقــت الظلمة على ضحكتها تأثيرًا زائدًا. لكن فعلها كان عكسيا صرفًا فقلت:

– إن كنت حريصة على إغضابى فأنا فى خدمتك.

ولم أكن أرى تعبير وجهها، ولكننى أحسســت حرارة أنفاسها قالت:

– أوه... لنسكت إذن حتى لا يتطور الموقف بلا داع.

– أحسن!!

– وهذا هو نفس سلوك أمى... مع أبى... حين كان ينجم... بينهم خلاف.

– أحسن!! فقالت بلهجة مسترضية:

– صحيح أحسن... لكن... هل أغضبك أحد فى الخارج؟

– لا...

– إذن...

وسكتت وسحبت كفها من على رأسى ورقدت على ظهرها وكتفها ملاصق لكتفى وأحسست كأنها تناقش فكرة، ثم قامت إلى دورة المياه وأشعلت النور فوضعت ذراعى على عينى أحول بينهما وبين الضوء.قالت عطيات بعد أن عادت وقد جلست على طرف الفراش وتركت النور مضاء.

– عبده... نسيت أن آكل. هل فى الدنيا ناس ينسون أن يأكلوا؟

– أريد أن أنام.

فقامت وأحضرت لقمة خبز غير طازج كنت أسمع قطمها فيها ونظرى فى غير اتجاهها, وكانت تأكل وهى جالسة على الحافة وثوبها الأحمر جدا يكشف عن صدرها وظهرها ويعض فى بياض إهابها بجوع. وتوقفت عن الأكل مدة غير عادية فنظرت بطرف عينى فرأيت اللقمة فى يدها كأنها شاردة. ثم سمعت صوت قطمها...قطمة واحدة لا غير، وتوقفت من جديد، حتى سمعتها

تنادينى بجد:

– عبده.

– نعم.

– لا بد أن تقول لى ماذا حدث لك فى الخارج؟

– لا شىء.

– من كان معك على القهوة فى هذا المساء؟

فظللت مستلقيا على ظهرى وشرعت أعد على أصابعى وكأننى أتشفى:

– حمودة... محسن... الدكرورى... عبد الله... خلاف... بدرالدين. وأيضا يا سيدتى... جمال أفندى!!

فردت كأن حجرا أصاب نحرها:

– جمال أفندى؟!

– ...

وظللت ناظرًا إليها.

– على القهوة؟ فقلت بلؤم:

– نعم على القهوة!! وهل هذه حادثة؟! فأجابت بارتباك:

– أبدا... لكن هناك شيئا نسيت أن أقوله لك. كان ينبغى أن يجىء فى أوانه. غير أنى نسيت. (وأطرقت) فقلت:

– لأنه غير مهم. فأجابت وهى تطفئ النور بعد أن وضعت بقية اللقمة على حرف المكتب وتحسست طريقها إلى مضجعها.

– بالضبط! !

– قولى. فاستأنفت ونحن فى الظلام:

– حين كنت غائبا... وأنا فى بيت أبى...

– هيه.

– لم يكن يخطر على بالنا أن جمال أفندى لا يزال يذكرنا. لكن سمعت ضجيج صوته وأنا فى حجرة النوم مع والدتى.. وكان يتكلم مع أبى على باب غرفة الضيوف... وقالت أختى الصغيرة... إنه مدرسك القديم يا عطيات...

قلت فى نفسى: لا داعى لمقابلته.. لكنه كان قد علم من أختى الصغيرة.. أننى.. فى البيت..

وانقطع صوتها فلم يجىء. ومفهوم تماما أن القصة مفهومة وأنها سلمت عليه وجلست معه. ولكننى استزدتها من القول! ! وفى بعض الأحيان يطيب لنا أن نطلب المزيد من الهموم! ! فاستطردت بصوت أقل شجاعة:

– كنا كلنا فى حجرة الضيوف... وتكلمنا فى الشؤون العادية التى يتكلم فيها الناس. فسألت متهكما:

– وتعشى؟! فأجابت ببساطة:

– لا.

فهدأت قليلا. وخيم علينا صمت جديد. وأحسست كأنى موشك أن أنام لكنها قبلتنى فى شفتى الساكنتين ونادتنى:

– عبده!!

– نعم.

– هل فيما قصصته عليك شيء يغضب؟! فأجبت بدون قصد:

– لا. لكن. كان يجب أن أعرف هذا من قبل.

فأجابت مسالمة فى وداعة وتهالك:

– صحيح... هناك أشياء يختلف مغزاها إذا تأخرت عن مواعيدها المقررة... فهمست:

– إذن فأنت فاهمة. فاستطردت بنفس اللهجة:

– من أجل ذلك،.. أنا... أحاول أن أسترضيك... عبده!!

– نعم!! فقالت وهى تطوق عنقى:

– ألا تحاول أن تقبلنى. هل نهون بهذه السرعة؟!... ليس هذا أملى فيك...

ونسيت. نسيت ما كنا فيه ولو مؤقتا. واستسلمت وأنا مهموم لشيء قد يجلب المسرة... لكننى تنهدت بعدها متعجبا مما حدث، وسمعت تنهدى فغمغمت بضحكة. ولم أعد نشيط الفكر ولا حادًا فى شيء... كنت لا أريد إلا أن أنام... فقط... نمت!!

* * *

١٠

واســترددت طبعى الهــادئ بعد ذلك، فعــدت وكأننى لجة من الزئبق.. ثم غابت ذكريات (جمال) بعد رحيله عن القاهرة.

وفكــرت فى إحدى الأمســيات وكنا فى بيــت أصهارى أن أقول أن أقــول لهذه الأم: إنــه لا داعى لتردد هذا الشــاب على بيتكم، ولكننى خفت من الجواب أن يكون أحد ردين: فإما أن يقولوا: «هل نطرد رجلا يطرق علينا بابنا». وإما أن يقولوا: «إنه سيخطب بنتنا الأخرى».

والأم قاســية كأنها كرباج، وأنا رجل غير شكس أوثر السلامة دائمــا. وكنت أنظر إليها وهــذه الأفكار تدور فى رأســى، فأرثى لنفســى من المستقبل إن اســتحالت البنت إلى مثل أمها عند بلوغها هذه السن. فانطويت على نفسى حتى خرجت.

وفى مستهل عامنا الجديد، دخل علينا حمودة فناء المدرسة وكنا وقتذاك قد فرغنا من تصحيــح امتحان الملحق، ووضعنا خطة صدنا بها أحد الزملاء، فطلب لنا شــايا وجلســنا نشرب. كان ذلك حين دخل حمودة وهو يهتف:

– أين المدعو محسن؟ أين محسن هذا أيها الإخوان؟

وكان فى صوته فرحة، فصرخنا نجيب:

– هل لحقه الدور؟! فقال:

– ألا خيبـــة الله عليكم جميعـــا!! لقد أصبح فى عداد مدرســـى الأميرى والله العظيم. ألا تصدقـــون؟ قرأتها اليوم بعينى هاتين... ديروط الإبتدائية يا أستاذ. طابت الحلاوة!!

واتفقنا على الوليمة. وجعلنا بعد هذا الخبر ننظر بهدوء شامل واستقصاء عميق إلى محسن باحثين عن فضائله كما تتفرس الأتراب ملامح من خطبت منهن. أما أنا فلم يكن لى أمل فى أن يلحقنى الدور قبل سنين وكنت أخاف من الغربة، وكنت أحب القاهرة، فلم تكن غيرتـــى معادلة لغيرة إخوانى الباقـــين. وأما فى البيت فقد كنا كما كنـــا منذ عامين تقريبا.. لم يتغير شـــىء ولم يتبـــدل نظام. زوجان يعيشـــان فى حجرتين بلا خادم ولا ولد. لياليا متشـــابهة تشـــابه الأيام المدرســـية، خالية من الهزهزة التى تطيل اليقظة مشـــحونة بالرتابة التى تخلق التثاؤب.

وكان الفصل شـــتاء فـــى هذه الليلة، ليلة كنـــت عائدا إلى البيت بعد أن عزيت صديقا فى فقيد. ولم يكن الجو يســـمح بالخروج لولا حرصى على الواجب، فقد كان لابسو المعاطف يحسون برد الطقس، وكنت من غير معطف أسير بسرعة لتسرع دورة الدم فأدفأ.

كنت أجتاز آخر شـــارع فى طريقى إلى البيت، وكان مقفرًا. كان المجاز الرئيسى الذى يؤدى إلى مستعمرة البؤس... أقصد عدة أكواخ بنيت من الطين والصفيح، على أرض حكر يقيم فيها بإيجار مناسب

الباعــة المتجولون وأصحاب الصنايع غير الرائجة وبائعو اليانصيب وبعض الشذاذ واللصوص ومن لا أعمال لهم.

وكانــت مصابيــح الشــارع نائمة (مــن بدرى). كانــت ضعيفة بطبعهــا والجو مرطب يندى الزجاج فظهــرت أكثر ضعفا وذبولا. وكنت أعد المصابيح وأنا ســائر وأســنانى تصطك من البرد وسمعت جعجعــة عربة تقرقر وكان الصوت يأتى مــن أمامى. وانقطع فجأة فساد سكون نسبىلم يشبه إلا صوت راديو أحد المقاهى ووقع حذائى على الأســفلت. وأتاحت لى ســرعتى أن أدرك العربة وهى لا تزال واقفــة فرأيتها كمــا تصورتها، عربة صغيرة عليهــا بقايا جزر لم تأكله السوق وبجانب الجزر... ماذا؟ كرمب ملفوف؟!... لا... بل طفل نائم. لم أستطع فى النور الخابى أن أتبين سنه. لكن من المؤكد أنه ضئيل وأنه سرح مع أبيه طول النهار لسبب ما، هو قطعا متعلق بأمه. لما غلبه النوم رقد متدثرا جنب البضاعة مغطى بتلفيعه أبيه. وعند أول الشــارع وقف الأب ليخلع ســترته ويلقيها على أبنه فلم يبق عليه إلا الجلباب كأنه لا يحس بالبرد. وألقيت عليهما نظرة، ودفع العربة بشدة فزادت سرعتها حتى حاذانى فسمعته يدندن!! وسبقنى!

ولمــا انحرفت إلى اليســار داخلا إلى الحى، كانــت جلبة عربته تبتعد وجلبة أخرى تقــترب، فحواها أننى لم أخلف حتى اليوم، وأن زوجتى لم تزعم مرة أنها حامل.

وكنت قد وازيت سور المدفن فى هذه اللحظة وبدأت أسمع تحريك الهواء للأغصان واصطفاق الأوراق فى عنف، وكانت نفسى جائشة جيشان القدح تصب فيه شرابًا مازجته الصودا. كنت أناقش قضية الأبوة والبنوة بحمية شديدة حتى دخلت فناء البيت فتحسست السلم المكسور قبل صعودى.

ورأيت عطيات فى ثوب نوم ثقيل واسع طويل الكمين يتناسب مع برودة الليل، أبيض فيه أزهار حمراء. وجالت به أمامى تجهز عشاء فاكتشفت – وكأنما كان ذلك فجأة – أن عامين من الحياة الزوجية قد جعلاها أكثر خصوبة. كانت كالروضة فى فصل الربيع كل شىء فيها طرى ملون. ولم ينجح اتساع ثوبها فى ستر جسمها المفصل، بل لعل أنوثتها بدت أكثر طراوة.

ووضعت على المنضدة بيضا مقليا كثير السمن وجبنا وبقايا طبيخ، فبدأنا نأكل وبدأت تثرثر:

– من الضرورى أن نملأ بطننا فالجو شديد البرودة. ما كان ينبغىأن تخرج هذا المساء ما دمت لا تملك معطفًا. مش كده؟!... لكن الشتاء قصير العمر، عمر عدوك يا حبيبى..

(ودفعت أمامى طبق البيض وأخذت تصيد الفاصوليا من المرق بمعلقة صدئة نوعا، وكنت سارحا فيما كنت فيه).

– فى الشتاء القادم يا عبده ينبغى أن تفصل معطفا...

– بإذن الله.

– المدرس فى التعليم الحر مزروع على صخرة لا يستطيع أن يمد جـذوره إلى تحت. ربما يلحقك الدور فى العـام القادم. (وضحكت مسـتطردة) فى هذه الحالة ليس من الممكن إذن أن تفصل معطفا لأن نفقات انتقالك إلى الصعيد ستكون كثيرة.

– انتقالى وحدى؟!

– أقصد انتقالنا. (على أننى كنت لا أزال سارحًا شارد اللب).

– أح..ح..ح. هل تشـعر بالبرد يجب أن نأكل جيدا. نسيت أن أخـبرك أن مريم خادمة أبى كانت عندى قبل حضورك وأبلغتنى أن أمى معتلة المزاج...

– لا بأس عليها. ماذا بها؟

وكانت عطيات جانحة إلى الأمام فرأيت فى جلستى بقعة صغيرة مـن صدرها ظهرت كأنها عـاج. كانت عظمتا الترقوة مسـتورتين بإهاب من الحرير تحت سلسـلة رفيعة من الذهب سرحت حليتها إلى أسفل، فأجابت وعيناها تعبران عما فى نفسها:

– أمراض الأمهات...!!

– إنها كثيرة، فأيها تقصدين؟

فضيقت عينيها وسـددت أهدابها إلى الأمام. وتركت ابتسـامة تقف على شفتيها فى شرود، فقلت أنا:

– هل سيزيد الكرام واحدا؟

فأومأت برأسها وهمست تكمل:

- وربما واحدة!!

وقمت عن عشائى فلم أجد صابونا على الحوض فكأنما كان هذا حادثا ضخمًا زاد من انقباضى. كنت فى الحقيقة أشبه بالعين المحتاجة إلى دموع منذ رأيت الأب وابنه فى الشارع فأدركت أن زوجتى أشبه بشجرة الصفصاف أو بالحقل الذى زرعته الطبيعة بالحشيش البرى... خضرة لا طائل تحتها!!

وتبدو عطيات وهى فى فراشها أكبر من سنها عادة. ربما ظهرت فى حياتها اليومية بنت عمرها بالضبط، فهى حين تطبخ أو تدبر نفقات اليوم تفعل ما تفعله أمثالها، أما فيما بعد ذلك فقد كانت أقرب إلى امرأة عركتها التجارب. وألقت نظرة على شرودى وهى تطفىء المصباح. ورأيت فى عينيها فى اللحظات الأخيرة التى سبقت الظلمة عزما على أمر، فعزمت على ضده لأن ثورة هادئة كانت تتسرب فى أعصابى لمحتها عيناها الذكيتان على وجه غير فصيح الملامح.

وفاح من أردانها عطر خفيف حين رقدت إلى جوارى. كان يمازج أنفاسها الساخنة على الرغم من برودة الليل. وذكرنى شذاه فى الظلمة شذا شممته من قبل واختزنته ذاكرتى... شممته فى شعرها فى الليلة الرسمية الأولى تحت هذا السقف. ليلة جلست على حافة الفراش ناكسة الرأس حافية القدمين تنظر إلى رجليها على السجادة. ذكرت هذا فزاد انقباضى.

وأقبلت تطوقنى، كالحية الإنسية تلتف بكل ما فيها. ووضعت فمها على شفتى الصامتتين، فوجدتنى فجأة أسألها:

– عطيات... ما اسم هذا العطر؟!

فشهقت وضحكت كأنما عجبت من السؤال، ثم أجابت وأنفاسها فى صدرى:

– حلم العروس!!... اه... لكنه... سؤال غريب!

– الدافع إلى هذا هو أننى شممته من قبل...

وسكتت. وسكتت قليلا كأنها ترقب شيئًا معينًا. وانحط فوقنا سكون شامل سره أن الحى ينام باكرًا فى ليالى البرد. وبين الفينة والفينة كانت تأتينا هفة أو هفتان أو أكثر من أغصان الشجر فى المدفن. وكنا نستمع إليها معا.

ولما شعرت عطيات أن الشىء المعين الذى ترقبه قد تخلف، خلقت موضوعًا جديًا للحديث، فسألتنى عن العلاقة التى تربطنى بالرجل الذى كنت أعزيه فى هذا المساء؟ فقلت:

– صديق!!

– آ... وما علاقة الميت به!

– أبوه.

– ولم يخلف سواه؟

– خلف، ترك ولدين: أحدهما مدرس وهو صديقى والآخر طبيب...

وسكتت، وكنت متوقعا أن تستأنف أسئلتها عن الطبيب، وصدق

ظنى، فقالت:

– جراح؟

وكان جراحًا فعلا فضحكت، لكننى أجبتها بما أراح نفسى أنا فقلت:

– لا. ليس جراحًا، بل طبيب فى أمراض النساء والولادة!! فلم تزد على أن قالت:

– آ...

وانحط فوقنا السكون من جديد عميقا باردًا، وعادت هفات الأغصان تدخل إلينا من خلال النوافذ. وسمعت لوح زجاج غير مثبت فى مكانه يزقزق من القلق. واندمجت فى الأفكار والأصوات حتى شعرت بالخدر يسرى فى عظامى وبأنامل النوم الرقيقة تتحسس طريق أجفانى. لكننى وجدت نفسى فجأة واقفا فى وسط الغرفة ووجدت عطيات قد أشعلت النور وسارعت إلى الشباك تفتحه بعد أن تلفعت بالشال...

كان الصراخ يأتى من البيوت القريبة المجاورة للمخبز.وكانت النار قد اندلعت معه أثناء السهرة، فاستيقظ الحى من النوم.

ولما ابتعدت عربة المطافى راجعة بعد أداء مهمتها وابتلع الليل آخر رنة من رنات جرسها كان المارة لا يزالون يعلقون على ما جرى، ففهمنا ونحن فى مكاننا من النافذة أن سرقة حدثت فى الطبقة الأولى من البيت المجاور للفرن أثناء الهرج والمرج وأن

صاحب المخبز رجل شـرير ابتلاه الله بالنار وأن سيدة أغمى عليها وهى تهبط السلم. وأخيرًا أخيرًا... وكنا ننظر من فتحة صغيرة من الشـيش حتى لا يصيبنا البرد، رأينا منظرًا قديمًا جديدًا. عشيقين جمع بينهما الحريق فتسـللا داخلين من فتحة السـور ثم غابا بين الأشجار!!

وجعلنـا هذا المنظـر نمتحن الحيـاة فى داخلنا بعـد فترة من رجوعنا إلى فراشـنا... كـدأب كل الناس بعد لحظـات القلق التى تهدد الحياة!!

ورأت عطيات آخر الأمر أن الفرصة أكثر سـنوحا فاسـتحلفتنى ألا أكتم عنها ما فى نفسى. وكنت شديد الرغبة فى النوم فآثرت أن أختصر الطريق فقلت:

– رأيـت فى عودتى إلى البيت هذا المسـاء منظرًا أثار فىّ كوامن الأبوة. وقصصـت عليها قصة البائع. واسـتطردت: ليس عندنا ما يسميه الناس تركة بعد وفاتنا... لكن...

فأجابت وكأنها على كرسى الاعتراف:

– إن أمى أشد قلقا منى ومنك وأكثر اهتماما بهذا الموضوع!!

– هل عملت شيئا إيجابيًا دون أن أعلم؟

– نعم. صحبتنى إلى بعض المستشفيات بتوصيات كبيرة، لكن...

– لكن...؟

– لا شىء!!

– أفصحى.

– أنــا لا أصدق الأطباء يا عبده، إن قانــون الوراثة أصدق قانون على وجه الأرض. أمى امرأة ولود، ولا بد أن أكون مثلها...

– تقصدين... فقاطعتنى:

– لا أقصد شــيئا. أقصد فقط أن الوقــت لم يحن بعد. وبعد، فإن صديقك طبيب أمراض النســاء والولادة الذى كنت تتحدث عنه من الممكن أن يوضح الموقف.

– هل فى الموقف غموض؟!

– قرر كل من رآنى من الأطباء أننى جهاز صالح...

وتفتحت على أبواب جديدة بعضها رغبات وبعضها هموم. كان بودى ألا تقوم بيننا مثل هذه القضية الشــائكة، لأن أخلص الأزواج وأكثرهم مودة لا يرضى لنفســه أن يكون هو سبب الخلل ولا مصدر العقــم. فلو أن قضية النســل قامت بين روميــو وجولييت لابتهل كل منهمــا إلى الســماء أن تكــون فى صفه. من أجــل ذلك انفتحت علــى أبواب من الهموم والرغبات، وأدركت أن واحدا منا ســيكون حتما مثل شجرة الصفصاف وأن الثانى سيدل عليه كلما سقاه وكلما رعاه... فوضعت ذراعى على عينى وسكت حتى سرقنى النوم.

وفى مساء اليوم التالى كنا فى بيت أصهارى.

وبيتهــم نموذج شــديد الوضوح للبيوت التــى تتراجع إلى وراء دائما. دخل قليل وأفواه كثيرة، والدخل واقف والأفواه تزيد!!

المـرأة المكسـورة فى صوان حماتى منذ خمسـة أشـهر لا تزال مكسـورة فظهر الصوان بمرآة واحـدة كأنه أعور العين. والبياضات على كراسى الصالون حليت بخروق حديثة العهد، وبعض الكراسى أصيـب بلين العظام فمالت رجولة فلا يسـتطيع أن يحمل نفسـه، والسجادة الصغيرة التى كانت فى غرفة النوم رأيت نصفها مفروشا فى الصالة ونصفها منشـورًا على حديد الشـرفة. والراديو يكركر. وثلاثة أطفال متلاحقون فى العمر ملابس بعضهم أطول منه وملابس بعضهم أقصر منه – كانـوا خارجين من المطبخ وفى يد الأكبر طبق فيـه رز يأكل منـه بأصابعه وهو فى طريقـه إلى الصالة، والطفلان الآخران يطاردانه ومع أحدهم ملعقة وفى حفنة الثانى طبيخ.

أمـا حماى فقد كان مضطجعا يدخن ويلعن التدخين كلما أشـعل سـيجارة، وأمـام الكنبة التـى كان مضطجعا عليها شبشـب ملفق كل فردة من زوج، وعلى رأسـه قلنسـوة من نفس قماش الجلباب، ووجهه المستطيل شديد الكرمشة، وسعلته التقليدية ذات خرخشة عميقة. لم يتغير!!

أما أزهى شىء فى البيت فهو حماتى!!

سمعت صوتها وهى فى طريقها إلى الحجرة التى كنا فيها تلعن أبا مريم وتسـب تربية نبيل ابنها وشـكل فتحية بنتها. فتذكرت بعض سـيارات النقل التى تسير بالجاز فتنشر حولها منه سحابة من دخان أسود فى عرض الطريق.

ودخلت من الباب كالفلك المشحون، بادية الحمل، مكورة البطن. ولم يكن ثوبها واسعا فأطبق على جسمها بفوضى، وبدأ من الأمام قصيرا ومن الخلف طويلا.

ونظرت أنا إلى عطيات نظرة كانت ذات مدلول، وتعجبت من المتناقضات التى تقوم فى حياة الناس. ثم تركت الأم تثرثر عن متاعب «البلايا» التى يسمونها الأولاد، والأب يتسخط على حياة الوظيفة بالعبارات التقليدية التى آلت وكأنها شكوى من الحب. تركتهم يتكلمون وسرحت أنا أتصور أمرًا لعله غريب.

تصورت أن هذا الرجل المضطجع على الكنبة المقارب على الستين خرج من هذا البيت صباح يوم ولم يعد!! أو دخل هذا البيت ظهر يوم ولم يخرج!! فانقطع بذلك المدد الشهرى الذى لا يزيد عن عشرين جنيها فماذا يكون مصير هؤلاء الذين يتزاحمون على حفنة من الرز؟!

وكما سألت نفسى فى الماضى قائلا لها: لماذا نحب أناسا لانرضى عن ماضيهم تماما الرضا، فنكصت عن الجواب. نكصت عن الجواب فى هذا أيضا. لأن تناسى الأخطار من أولى دعائم اللذة!!

ولما أوينا إلى فراشنا بعد عودتنا إلى بيتنا، كانت أفكارى عن الذرية أقل حرارة، وأنفاسى أميل إلى الهدوء.

* * *

(١١)

نحن ندرك أن العمر ينقضى كلما وقفنا عند رأس سـنة جديدة، ولكـن إدراكنا لانقضاء العمر يبلغ القمة إذا ما فارقنا حبيب بموت أو سفر.

عندئذ يبدو لنا العدد الضخم من السنين فى تفاهة طرفة العين!!

اهتزت مشـاعرى بعنف فى أول هذا العـام... يوم دخل علينا حمودة واجمًا حزينًا لا يتفق حزنه ووجومه مع مرح وجهه، كأنه شربات يدور فى مأتم. وجلس على الكرسى فى تهالك. واضعًا رجلًا على رجل، فبدا طويل السـاقين كأنه شـبح. ولما تحسس جيبه فلم يجد فيه سجاير، نظر إلى أحد المدخنين بطرفه وتنحنح. وضحكت من أعماقى وأنا أسأله عما جرى، فقال أحد السخفاء من الذين عينوا جديدًا فى مدارس النصر ولم ينسجموا مع المجموع:

– الست عيانة. فرد حمودة قائلا:

– سلامتها... ألا خيبة الله عليك.

ثم قال وهو ينفخ الدخان فى وجهى:

– عبده... قضى الأمر!!

فقلت وقلبى يدق:

– هل تركتنا يا حمودة؟! خلاص!!

وكان معنى انتقال هذا الصديق إلى المدارس الأميرية أننى أصبحت آخر عود من الحزمة. عودًا منفردًا وحيدًا، فشعرت بالغربة التى يشعر بها المسنون بعد موت أندادهم. وأصبحت بعد فترة من الوقت أشبه بالسكين بعد أن يجرى على المسن. فدخلت فى طبعى حدة لم تكن فيه من قبل.

وفى المساء الأخير الذى سهرت فيه أنا وحمودة على قهوة الكوكب، شعرت بظلال الوحشة تزحف إلى نفسى. وألقيت على مجاميع الأصدقاء على القهوة نظرة من فوق كتفى ونحن خارجان. وقبل أن يفترق بنا الطريق عانقته، وفى عينى دمعة سترها الظلام، وظللت فى مكانى حتى غاب عنى، وكان آخر ما قاله وهو يشير بذراعه: وداعا يا عبده... أنتم اللاحقون ونحن السابقون... ها... ها... ألا خيبة الله عليك!!

لم أكن أبث هذا الشخص كثيرًا من متاعبى، لكننى كنت أدخره لوقت الحاجة، أو كنت أشعر بذلك على الأقل، ونحن نحزن على فقد ما يدخر، مثل ما نحزن على فقد ما يستهلك.

وكانت نفسى كثيرة المخاوف منذ قامت مشكلة الخلف بينى وبين عطيات، لأننى لمحت تغيرا طارئًا على تصرفاتها، جعلنى فى ندم من باح بسره لغير المؤتمن.

وأنت تعلم أنها – حين تكون فى فراشها – تظهر أكبر من سنها، كأنها باب جازه رجلان ويجتازه الآن رجل ثالث. وكثرت زيارات

أمهـا لها وكثـرت زيارتها لأمها. وكنت أدخـل عليهما على غرة فينقطع بينهما الحديث، وإن بقيت آثاره على الوجوه. وبدا كرباج حماتى أشد لسعًا وقد أحسسته فى يد بنتها.. زوجتى!!

أصبحت عطيـات زاهية الزينة، تذكرنى عنـد مدخل كل ليلة بمولد السيدة، أو بملابس أطفال القرية فى ضحا العيد الصغير.

وصـادف فى هـذه الأيـام أن عانت مـدارس النصـر نقصا فى مدرسيها، فأصبح كل واحد منا يقوم بعمل رجل ونصف. وأضحيت مثل علبة الساقية، لا أكف طول النهار عن الطنين والدوران. وأملأ حقيبة وجريدة قديمة بكراسات من كل نوع، آخذها معى إلى المنزل لأعمل بها فى الليل.

ولم تعد قهوة الكوكب داخلة فى حسـابى، لأنها صارت مقفرة مـن الإخوان. ولم يكن هنـاك وقت لأن أزور أحدًا، خصوصا بعد أن رزقنى الله بدرس خصوصى، امتص فضلة فراغى. فكان لا بد إذن من الاحتباس فى المنزل بعد العشاء، واستعمال القلم الأحمر... أنبوبة المحقن التى ركبت على عروقى. وكانت عطيات تناوشنى برعونة، أو هكـذا خيل إلى، حتـى تصورت أننى أعاشـر غانية لا أصاحب زوجة. كانت أشـبه بثلة من الأطفال الجياع أمام الفرن البليد، فهم يتلقفون ما يخرج منه فطيرة فطيرة...

وآخلص من عملى فى تصحيح الكراسـات، وآوى إلى فراشـى، فـأرى فى اللحظات الأخيرة، قبـل أن تنطفئ النور، عطيات وهى

شـاهرة زينتها، عارضة أنوثتها فى مناورة غير سـلمية، فأتنهد فى هـدوء. ويخيم الظلام على الحجـرة، فتأخذ فى قص القصص، وحكايـة الحكايات، ورواية الروايـات، والتحدث عن الحوادث، وكثـيرًا ما أغيب قسـرًا عنى وعنها، فأغرق فـى النوم وقد يحدث أن تصنـع من رمادى نارًا بطريقة النفـخ!! كما تفقد القروية علبة الكبريت فتجمع الورق على الجمرة التى تجدها فى الرماد، ثم تظل تنفخ وتنفخ... حتى تحيلها إلى نار.

وفى صبيحة تلك الليالى تدور الساقية فى مدارس النصر. ويتجدد الطنين واللف، والناظر والمدير والمفتشون والنتائج من خلفنا. وحياة كأنهـا فى كهف أو منجم، يقـدم لى فيها الغـذاء القليل، والعمل الكثير...

وحتى الملذات قد استحالت فى حياتى إلى عمل!!

وإذا أصبحـت اللـذة عملا. انهـارت الحياة مـن كل جوانبها. وضعفت صحتـى، فضعفت روحى. ولا تنس أنها من الأصل روحى ضعيفة. وركبنى الخوف من المسـتقبل، وأصبحت كثير الهواجس. وأصبحت عطيات كثيرة المطالـب، وأنا رجل محدود الدخل، وهى تعلم حقيقة دخلى. فاسـتطاعت ببساطة – وأعتقد أن ذلك من أمها – أن تشعرنى أننى مفلس... ضعيف!!

وطويـت جوانحى على ما فى نفسـى، فلم أعد أذكر شـيئا عن الذرية ولم أكن متبينا طريقى. كان موقفى منها وهى فى بيتى نفس

موقفى منها فى بيت أبيها، فلم أكن أعلم إلى أين أنا ذاهب، لكن قدماى كانتا تتحركان!!

ووضعت حماتى أنثى، وشربنا عندها المغات. وأوقدوا لها الشموع ليلة السبوع. وقال حماى: إنه فى انتظار رزقها، لأن الله الذى يشق الأفواه، كفيل بإطعامها.

وقالها الرجل الطيب فى يقين ساذج وثقة صماء. ثقة الريفى فى شربة الزيت التى تشفى من كل مرض. وتذكرت عدد الأطفال الذين يحيون فى هذه الشقة، فأدركت أنها «كتيبة». أثاث يخفى، وأطفال يظهرون، كأنها حركات سيماوية، كحركات الحاوى فى السوق حين يحول المنديل إلى أرنب!!

وكانت حماتى ليلة سبوعها كعود القصب الذى مص وهو مزروع. وكان هناك دجاجة ذبحت من أجلها، شقى لحمها بالعيون التى سلقته أكثر من شقائه بالأفواه التى مضغته...

وقلت لزوجتى، ونحن فى الطريق إلى بيتنا: أنا مسافر... بمناسبة إجازة نصف السنة. سأرى ماذا هناك... فأمى مريضة. وربما وجدت جديدًا فيما يتعلق بأختى. فلوت بوزها وأشاحت بوجهها. وكنا فى الشارع فلم أعلق على الموقف، وكان مزاجى معتلًا: أشعر بدوار شديد وأدوس على الأرض فتهبط تحت قدمى كأنها كاوتشوك منفوخ...

ووجدنا الحارة نائمة حين دخلناها، والأشجار فى المدفن تهمس

بــكل أغصانها، كأنهــا تحكى حكايات. وحدأة راقدة على الســور فوق الثغرة تماما، وقد دفنت رأســها تحت جناحها. وكنا لائذين بالصمــت، حتى عرجنا علــى البيت ودخلنــا، ففوجئت بعطيات منكفئة على الأرض، وكان من المحتمل أن يصيبها مكروه، لولا أن اعتمدت على راحتيها. كانت قد عثرت فى الســلم المكسور الذى لا يريد صاحبه أن يصلحه. فقلت لها وأنا أنهضها من تحت إبطها:

– سليمة؟! الحمد لله!!... ألم تعرفى الطريق حتى الآن!؟

وتنهدت ولم ترد. وأخذنا نخلع ملابسنا ونحن صامتان، ولبست قميص نومها بحركة عصبية ، وتمددت على الســرير. وكنت فاتر النفس كأننى شــبعت من الخصومة. كنت كطرف ضعيف فى قضية ضعيفــة، أريد أن أسمع الحكم فيها علــى أى حال. ولم أكن أعرف بالضبط أين تقع عطيات من قلبى فى هذه المدة. كنت كالمدين الحائر المضطر، تجده مستعدا لأن يبيع أنفس نفائسه بثمن بخس. حتى إن كانت عطيات من النفائس.

وكانت لا تزال نائمة، أو لعلها متناومة، وأنا ألبس ثيابى وقت الصباح. وأخذت حقيبة سفر صغيرة فيها بعض حاجاتى، وأيقظتها من النوم:

– عطيات... أنا مسافر.

فنظرت إلى نظرة لينة لا تخلو من اللؤم:

– صحيح؟ مصمم؟... أصبحت أعاشر رجلًا عنيدًا...

– أنا مسافر ! ! فنهضت من فراشها فرأيت زينة الليل سليمة لم يتلفها لمس إلا ذوائب شعرها البنى. وألقت بنفسها على صدرى، فاحتضنتها، فقبلتنى ثم سارت خلفى حتى الباب.

وشممت هواء الشارع طريًا حلوًا، فأحسسته فى أعماق صدرى. وبعد أن ركبت القطار أحسست براحة... لن أقول: إنها أشبه براحة من قضى مدة السجن وخرج، ولكن أقول: إنها كراحة من خلع من قدميه حذاءه الضيق بعد أن مشى به شوطًا متعبًا ! !

ورأيت أمى فى القرية أشبه بالدجاجة الراقدة على بيض، هزيلة لا تفارق مرقدها. ومن الغريب أنها كانت تشرب دواء، وقت دخولى عليها، فنظرت فى وجهى وسألتنى عن صحتى، وعلى وجهها تجعدات ألم واشمئزاز، كنفس الصورة التى حفظتها لوجهها يوم كانت تغرينى بالزواج، وسألتنى زينب من جديد: هل أنت مريض؟! فقلت: لا ! ! وهززت رأسى مطرق العينين.

وتجدد الشىء القديم الذى حدث من قبل: ارتحت، وتغذيت، فتقدمت صحتى، وجرت النضرة فى لونى كما تجرى الخضرة فى أعواد التوت قبل تفتح البراعم.

واختلت بى أمى عصر يوم من الأيام وسألتنى، كانت جالسة على سريرها العالى، وكنت أنا على أحد الكراسى قريبا منها، وكان وجهانا فى تجاه نافذة تطل على الحقول. سألتنى أمى:

– عبده ! !

– نعم يا أماه!!

– حالك لا يسر يا حبيبى!!

– أنا فى الحقيقة مرهق يا أمى!!

– أعمال؟!

– نعم. أعمال!!

فهزت رأسها، ونظرت فى بعينيها السليمتين نظرة لا تطرف. ثم مصمصت بشفتيها، وتنهدت، ونظرت إلى الحقول من خلال النافذة.

وطال الصمت. ودخلت علينا دجاجة من الباب المفتوح فقالت وهى فى فراشها لتطردها: "هش". فانفتح الحديث:

– عبده!!

– نعم يا أماه!!

– كان بودى أن أرى زوجتك مرة واحدة.

– سأصحبها معى فى فرصة أخرى.

– لكن... أهى حامل؟

فأطرقت خجلا كأننى أخفقت فى مشروع. وقلت وأنا أنظر إلى نقش الحصير تحت أقدامى:

– لا!!

– هل حدث أنها أسقطت جنينًا؟!

– لا أيضا!!

– طول هذه المدة؟!

فلم أرد..

ودخلت دجاجة أخرى فقالت لها: «هش» ونادت زينب وأمرتها أن تحبس الدجاج. ثم سمعنا خوار ثور وصياح فلاح، فابتسمت أمى وهى فى مجلسها ونظرها إلى الخارج، فرأيت على بسمتها نور من اهتدى إلى حقيقة. ولم تمض برهة حتى أشارت إلى:

– عبده. تعالى إلى هنا.

فقمت. وحاذى رأسى رأسها وأنا واقف وهى على السرير. ونظرت إلى الحقول، فرأيت ثورين معلقين فى محراث على مرمى البصر، ومن ورائهما فلاح يفرقع بسوطة. سألتها:

– هل أخرجت هذه الأرض زرعًا؟ إنها مملحة.

فضحكت حتى تكرمش وجهها وقالت:

– منذ ثلاث سنين وصاحبها يحاول. ولكنها تأكل البذور أولا بأول!! فهل فهمت؟!

فأجبتها فى شبه غضب: أنا لا أريد ذرية، اسكتى، أنا رجل فقير! ولبست حذائى وخرجت.

وآل بيتنا فى القاهرة إلى حالة، لا هى سوداء ولا هى بيضاء، ملؤها قلق من الحاضر وخوف من المستقبل.

أما قلقى من الحاضر فلأننى كنت ظمآن كارها، تماما كأننى أمام كأس من الخمر. وكانت أنوثة عطيات فى تقدم نحو الكمال كأنها

ليالى الأشـهر القمرية. وكنت أحس حينا أن شـخصا ما يرقد بينى وبينها، صورته مطابقة لصورة جمال أفندى. وحين يغيب عنى هذا الخاطر المسـموم، فتكمل فى فراشنا عناصر اللذة، أذكر أخيرًا وأنا أجفف عرقى... عرق الفلاح، الذى رأيته من النافذة، يوم أشـارت أمى إليه، والثور والبقرة الربيطين فى المحراث، وفرقعة السـوط مـن خلفهما، والجهد والعنـاء، والأرض... المملحـة، التى تأكل البذور أولا بأول. فأشعر بنقمة مزدوجة تمشى فى خطين متوازيين بعضها على أمى!! وبعضها على امرأتى!!

وأما خوفى من المسـتقبل، فقد كان شـيئًا خطـيرًا. وكنت أنفيه عن رأسـى وأحول بينه وبين الدخول. لكن... الأقوياء لا يدفعون، فقد تسـلل هذا الخاطر إلى نفسى قهرًا وقسرًا، وناوشنى فى أوقات متباعدة. وذلك هو خوفى من ولد مزيف!!

أما قلق عطيات، فقد كان أقل ترتيبًا، وأكثر فوضى. كان كحرب العصابات يستعمل فيها كل شىء حتى الطوب والزجاج.

كانـت واقفـة لى بالمرصاد تنفخ فى رمادى ما اسـتطاعت، حتى تحيله نارًا، وتسـتحيل النار إلى تراب. وليس يعنيها بعد ذلك أن تسالمنى، بل كثيرًا ما كانت تشتبك معى فى عراك.

وكانت نظراتها إلى الأطفال غريبة، خصوصا إذا كانت أمامى.

وإذا كنـا لا نصدق الكذابين، فإنه قد يعن لنا أن نتبعهم حتى لا نخنق أول خبر صادق يقصونه علينا. من أجل ذلك، وجدتنى مجبرًا

على أن أصدق ما قصته علىّ عطيات:

– فى أثناء غيابك يا عبده، حدث شىء عجيب.

– خيرًا؟!

فضحكت بين كفيها، ثم تناولت مشطا من على المنضدة، وجعلت تمشط شعرها غير المحتاج إلى تمشيط، لكنها حركة:

– عدت فى إحدى الليالى من بيت أبى باكرًا، لأن الجو كان ينذر بالمطر...

(فقلت فى نفسى عندئذ: لا بأس. نفس القصة القديمة التى تحكيها كل زوجة. رجل غازلها فى الطريق، وطاردها حتى الباب. ورفعت صوتى قائلًا):

– هيه...

– ولم أكد أكمل خلع ملابسى، حتى سمعت طرقة جريت بسببها إلى الباب وفتحته، لأنها كانت نفس طرقتك، فرأيتنى بغته أمام شاب غريب. ولما تراجعت جافلة، وأنا أسأله عما يريد؟ قال بهدوء:

أليست هذه هى شقة المرض؟ فأشرت فى سخط وأنا أرد الباب قائلة: لا... فوق.

– وما فى هذا؟ ألم يحدث أن أخطأ قبله ناس كثير؟

– حدث. لكننى تذكرت أننى رأيت هذا الوجه ذات مساء. وكان سائرا ورائى خطوة خطوة.

فسألت فى قلق كنت لا أشتهيه:

– ثم...

– اعتذر وانصرف.

– صعد؟

– لست متأكدة، لأننى أقفلت الباب قبل أن يتحرك من مكانه. ولم يكن على وجهه دلائل البراءة.

– ثم...

– وبعد ذلك بليلتين طرق الباب نفس الطرقة...

وكفت عن تسريح شعرها، وأمسكت المشط وهى تمرر إصبعها على أسنانه فتحدث صوتا. وكانت عيناها إليه لا ترتفعان.

واستطردت تحكى:

– لم يكن هناك مجال للشك مرة أخرى، فإنها طرقتك. وفتحت، فرأيته هو واقفا أمام الباب...

فلم أجد نفسا أستطيع أن أقول به (هيه)، فأومأت برأسى أستزيدها.

– امتلآ جسمى رعبا وتطلعا، فلما سألته عما يريد؟ أجاب نفس الإجابة: أليست هذه هى شقة المرض يا سيدتى؟ فقلت له:

– أنت مريض حتما. ألم يحدث أنك أخطأت قبل ذلك؟ فأجاب برباطة جأش: أنا؟ وإذا كان ذلك صحيحا فأنا متأسف. أنا يا سيدتى طالب بكلية التجارة أسكن هذا الحى، ومعى زميل مريض

محتاج إلى من يحقنه...

ثم أولانى ظهره، وصعد السلم، وداس على قطة كانت نائمة فى الظلام فاختلطت صرختها بقهقهة، ثم سمعت دقة على الباب فوقنا، ولكن لم يجبه إنسان.

فقلت لها: طالب رقيع. فأجابت وهى ناهضة لبعض شأنها:

– ومنذ ذلك التاريخ، لا يمر تحت النافذة إلا رفع رأسه إليها. هل تحب أن تراه؟

فقلت ببرود مصطنع: لا... دعيه يأكلك إن استطاع ذلك!!

* * *

(١٢)

وذهبت فى صمت خائف، أستشير أحد الأطباء فى صلاحيتى فأعطانى نتيجة تدعو إلىالشك، ووصف لى علاجا. لكننى ذهبت فى حرص شديد إلى طبيب آخر، فأكد لى عكس ما قاله الأول. ونحن نختار من الأحكام ما يناسب هوانا. وبهذه التصرفات ضاعت الحقيقة بينى وبين زوجتى. ولم يكذب اتهامى فى هذه المرة، فقد رددت على تلميح لها، بأننى أديت واجبى نحو حياتنا المشتركة، واستشرت طبيبًا!! ثم أردفت: على أننى لست قلقا فلا تحزنى.

فأجابت ببساطة كانت تلون طبعها فى بعض الأوقات:

– لست قلقة والله العظيم. ماذا أصنع؟!... إنها أمى. لا تزال حتى الآن تؤكد لى صحة قانون الوراثة...

وكانت عطيات فى هذه الوهلة امرأة حقيقية. سهلة لينة ضعيفة، بل متضعضعة. فقبلتها!!

على أننى كنت أسأل نفسى، حين آنس منها أنها قادرة على أن تجيب: هل أحب عطيات؟ هل أستطيع فراقها؟! فإذا بها تنكص عن الجواب كما ينكص الطالب البليد، أو تجيب إجابة متلجلجة لا تجنح إلى ناحية!!

ومتى عرفنا أنفسنا؟!... ألم تستعن بصديق لك مرة من المرات

ليعاونك على معرفة نفسك... أنت؟!

غير أن الجواب جاء من أوسع الأبواب عصر يوم من الأيام. عدت إلى البيت ونفسى مشحونة بمشاعر شتى. وكانت عطيات تحس وعكة، فوجدتها فى الفراش، وعن لى أن أتذوق الحادث وأن أقصها عليها ببطء، فقلت لها، وأنا أجلس على حافة السرير.

– تشجعى يا عطيات، فإن عندى خبرًا لست أعلم أيحزنك أم يسرك!!

فعضت على شفتها حتى احمرت، ورجتنى أن أسرع لأنها مريضة لا تحتمل الهزات، وأخذت يدى بين كفيها وشرعت تشد أصابعى واحد فى إثر واحد فنسمع طقطقتها:

– عبده!!... أرجوك!!

– لسبب طارئ لا يعرف كنهه، احتاجت الوزارة إلى مدرسين فى مدارسها...

فنفضت اللحاف برجليها وقامت تعانقنى وأنا جالس. وجرى فى شحوب خديها احمرار بديع. سألتنى:

– ولكن.. إلى أين؟

– إلى الفيوم.

الفيوم؟!... فضل من الله على كل حال. سينتهى بنا المطاف حتما إلىالقاهرة، وعادت تقبلنى بحرارة.

صرت أشبه بالمريض، أحس دبيب العافية بعد سقم طويل.

وخلع كثير من الأشياء ملابسه الرثة التى كنت أراها وارتدى ثيابا جديـدة. ورأيت مدارس النصر أشـبه بمسـتودع لذكرياتى فارتفع ثمنها فى سوق عاطفتى. وخيل إلى أن عيون الطالبات كانت مكحولة بالدمـع، ونظرت إلى الحديقـة والفصل والطرقات والمماشـى التى شـهدت ميلاد قصتى معها نظرة طويلة، كأننى أتعرف عليها بين معالم تاهت فيها.

وذكـرت أعواد الحزمة، حتى جمال أفندى، وذكرت أننى آخر عود فيها وشـعرت أن الأيام مرت بسـرعة، وقد كنت أحس ثقلها قبل ذلك، وجلست أنا وزوجتى نتفقد الموقف:

كنا فى شـهر مارس، بيننا وبين نهاية العام الدراسى مدة غير طويلة. فاتفقنا منذ الوهلة الأولى على أن سفرها معى إلى الفيوم ونقل أثاثنا عمل غير صالح، وأن خير ما نعمل هو أن أقضى هذه الأشـهر كيفمـا اتفق، وأترك عطيات فى القاهـرة، على أن أزورها كلما كان ذلك فى استطاعتى.

ولمحت فى عينيها دموعا وهى تبعث بكلمة الموافقة، وجاءنى من أوسع الأبواب جواب سؤالى، فعرفت أن عطيات تملك على قلبى، فقد اهتززت بكل كيانى عقب إصدارنا قرار السـفر، كما يهتز عود الخيزران اللين. وعرفـت كذلك أن معنى واحدًا نعتبره مزية، ولو خطأ، قد يعمينا عن أضخم العيوب فى الناس.

وقمت فصنعت لها شايا بيدى، وهى فى الفراش، وقدمت إليها

بعض أقراص مسكنة. وكانت تشكو من الصداع وتتكلم من فرط السعادة، وكنت أدعوها إلى الصمت ثم أحدثها بعد دقيقة.

واستأذنتها فى الخروج كأنما لأودع شيئا. مررت على قهوة الكوكب وأنا سائر إلى غير غاية، فوقفت عند منعرج الشارع حيث انصب فى سمعى صرير الترام مخلوطًا بصوت باعة الفاكهة، ونهيق حمير فى موقف العربات. وكان بصرى ينفذ من خلال الألواح الزجاجية الكبيرة إلى داخل المقهى، فأرى المناضد الخالية من أصدقاء كانوا هنا ثم طوحت بهم يد الأقدار فى أرض الله!! وخادم القهوة وهو يغدو ويروح على الزباين الجدد فى مريلته البيضاء. فهمست وأنا أدور راجعًا إلى البيت:

– جاء دورنا!!

ومع أن المساء كان ربيعيا، فقد كان هناك سحابا فى أديم السماء. وقمر آخر الشهر فى الجانب الشرقى يتسلق الأفق فى طريقه إلى الغرب، فرأيته من خلال أشجار المدفن، وأنا فى الشباك، على حين كانت عطيات تجهز عشاء طيبًا اشتريته قبل عودتى.

ودخل علينا النسيم ونحن نتعشى، وطار بشقتى الستارة فى كل اتجاه، وقضقضت عطيات بأسنانها، فقمت فأقفلت الزجاج. وكان هناك صدى غناء يأتى من الحى الساهر، ومرح كثير يملأ الجو أظنه كان منبعثًا من نفسى. أما هى فكانت فى هذه الليلة كالحمامة المبلولة، غطى المرض شيئا ما على طبيعة الغزل فى روحها المتوثبة.

ودخلنا فراشــنا وأخذنا نتكلم، وكان هنــاك حنان ندى يجرى فى كلامها، أشهى بكثير من القوة النسوية، والنبرة العالية، والحركة المتراقصة، فقلت لها:

– لا داعى طبعا إلى أن تقيمى فى بيت أهلك، ولكن أنت حرة فى تضييع ســاعات النهار بينهم، وفى الليل تســتطيع إحدى أخواتك أن ترافقك إلى هنا لتنام معك، فتؤنس وحدتك. لكن... أرجوك!!

– أأمرنى!!

– أرجوك فى شىء واحد.

– هو؟!

ألا تضيقى على نفسك فى النفقة، حتى آكل بهناوة، ما قد يكون بين يدى وأنا بعيد عنك!!

فتنهدت وارتجفت شــفتها، ومال وجهها إلى الشحوب، وبدت كالحمامة البيضاء المبلولة أكثر وأكثر، ثم قالت بعد أن قبلتنى:

– عبده!!... فكر فى نفســك أنت. لكن الــذى أطمع فيه هو أن أراك كلما قدرت.

وانخرطت فى البكاء، واضطرب جســدها من أعلى إلى أســفل، وتحسست جبينها وأنا أمسح دمعها، فخيل إلى أنها ساخنة، فخفق قلبى. وعاد مرة أخــرى فخفق حين تأكدت أننى أحبها، تلك التى لم تحظ بثقتى كاملة فى يــوم من الأيام، لأن ماضيها كلوح الزجاج المشــروخ، وحاضرها يحرسه التســامح، والمستقبل بيد الله. غير أن

الزجاج المشروخ يذكرنا دائما بالكسر. ثم جاشت نفسى بعد أن نجحت فى تهدئة عطيات، فأخذتها بين أحضانى كأنما لأحميها من الخوف، وكانت لينة مستسلمة مثل لفة القطن، وأنفاسها وانية ساخنة كأنها نصف محمومة. ولكننى لم أستمع إلى اعتراضها المتوسل الذى ما لبثت أن نسيته!! ثم استغرقنا فى النوم!!

وفى الغربة والسجن والساعات التى يهادننا فيها المرض، نستطيع أن نذكر تفاصيل حياتنا، وأن نشرف على البقاع الغامضة فى داخلنا من فوق قمة فنرى ماذا فيها:

اكتريت غرفة صغيرة فى لوكاندة عادية، وبدأت أعيش عيشة الوحدة. وكانت الأيام الأولى من إقامتى قاسية على، حتى خيل إلى أننى فى غير وطنى.

ولم تكن الأفكار المقلقة تنتابنى إلا فى الليل بعد أن أمشى شوطا طويلا أو قصيرا فى شوارع المدينة، ثم أدخل إلى فراشى مؤثرًا ألا أنفق قرشًا على القهوة، لأن القروش التى أبعثرها فى التفاهات، يصلح مجموعها أن يكون أجرة سفر أرى فيها عطيات، وأطمئن على أحوالها.

وبعد ثلاثة أسابيع قررت أن أسافر. ولم أنم الليلة التى سبقت سفرى إلا غرارًا، ولم أشأ أن أذكر لها فى رسائلى أننى حاضر لأضيف إلى حلاوة اللقاء حلاوة المفاجأة.

وسافرت ضحا الخميس. وحين دخلت إلى الحارة أحسست

أننى أولد، وأن حركة الحياة فى نفسى كحركة اختلاط الماء البارد بجوف العطشان. كانت النوافذ مغلقة توحى بأنه ليس هناك أحد. غير أن مثل هذا الخاطر آخر ما يصدقه المشتاق. وطرقت الباب، ففتحت بنفسها، ولم أدرى ماذا فعلت، فقد احتضنتها فجأة وأخذت أقبلها، وقالت لى خطفا وبجهد فى وهلة وقعت بين قبلتين: أختى هنا... وتدافعنا إلى الداخل ونحن نتكلم. وكان معى ثياب غير نظيفة، وطعام اشتريته من الخارج، واستأذنت أختها فى الانصراف فالتقينا وجها لوجه.

أدهشنى أنها حظيت بتقدم صحى لم يكن على بالى. وأطريت بلسانى حالها ورونقها الجديد. وقلبى لا يوافق على ما أقول، كأنما كان يتمنى لها العكس. شىء غير مفهوم، أو لعل سره هو ترجيحى أن التقدم الصحى ناشئ من استقرارها النفسى، والزوجة المنفردة لا تكون مستقرة النفس إلا إذا كانت لا تحس بغياب زوجها، أو كان هناك من يؤنسها فى الوحدة!!

هذا هو ما كان فى أعماقى، حين نظرت فى مرآة كبيرة تقوم فى حجرة النوم، فرأيت وجهى فى أديمها بعد عشرين يوما. خيل إلى أننى متغير، أشبه بالمحارب النازل فى إجازة، أشعث أغبر جاف الشعر، أسمر اللون أكثر من المألوف، لا يخالط ماء النعيم ملامحى وقسماتى.

وضحكت عطيات وأنا أتأمل نفسى فى المرآة. ورأيت أسنانها

الصدفية فى فمها الضاحك وهى واقفة خلفى، فابتسمت فى أسف، واستدرت إليها وربت على خدها، فقالت وهى تلتصق بى: يدى عليك ترياق.. هل عرفت؟! فأجبتها وكأننى مهزوم: عرفت عرفت...أشياء كثيرة!؟

وفى طريقى إلى الفيوم شعرت بميوعة الموقف، أقصد موقف عطيات. كنت أتخيل أن الحلاوة أحلى من ذلك، لكننى توسمت فيها الشماتة، أو شيئا يشبه الشماتة حين رأت ذبولى، مع أن ذلك كله كان من أجلها.

وقالت لى بثقة وعدم اكتراث: إننى أتسلى. أتسلى مع إخواتى وأخواتى وأخرج مع أمى لزيارة الناس. أعمل جاهدة على بعثرة الوقت، وعندما أعود إلى البيت أقرأ حتى أنام!!

كان القطار يعبر أحد الكبارى، وأنا أذكر قولها هذا، فلما أصبح صوته أصم بعد انزلاقه على الأرض اليابسة، ذكرت ليالى وأيامى فى الفيوم، وحبستى فى الغرفة الناصلة البياض، المهددة بالبق فى سبيل قروش أجمعها لأسافر إليها.

لم تكن كفتا الميزان متعادلتين فيما بدا لى، فرجعت غير مسرور، ملأت لها كفى بالحب، وملأت لى كفها بالمن. ثم لم تكن بارعة فى وداعى.وإذا كانت الأماكن تمدنا بخيالات تتناسب مع أشكالها، فإن الحجرة الضيقة ذات الضوء الكابى، والشباك الواحد الذى يطل على حارة وورشة نجارة – أمدتنى بخيالات كئيبة.

فتخيلت أن صديقا بدا فى الأفق لعطيات، وساعدها غيابى على أن تكبو، وساعد خيالاتى على النمو أن عطيات لم تكن بارعة فى وداعى.

وجعلت أقرأ، وأسهر وأتسلى لأنسى القاهرة. وافترضت كل الفروض، ووطنت نفسى على قبولها. ما أقسى ما يحدث؟ أن أفقدها؟ أعنى أن رجلا آخر يستولى عليها؟ مع ألف سلامة!! سأعيش!!

وبذلك طابت لى الحياة نوعا. وبدأت آلف من حولى، وأخذت العلاقة بينى وبين الناس تمد جذورها حتى أثمرت صداقات.

أحبنى الناظر لأنه كان مبتلى بثلة من المدرسين المشاغبين، فرآنى أمثل ركن السلام فى حياته القلقة. وكان تعبا من زوجته، كانت أكبر منه سنا، قوية قاسية. وشبهها يوما بالكرباج، فضحكت وذكرت حماتى.

وأكد لى أن الحياة الزوجية لا تفرض تعاستها على رجل، مطلقا، إلا بقوة واحدة... هى الذرية!!

فتنفست الصعداء، كأنما فتح لى بيده نافذة على الهواء الطلق. ولم أعد أشعر أننى محبوس. وكان لصدى مدحه فى أن سعى إلى بعض أولياء الأمور، يرجوننى فى مساعدة أولادهم بأجر. فتيسرت حالى.

وكتبت إلى عطيات أقول لها: إننى مرتاح فلا تقلقى على!! فكتبت إلى تقول لى: إننى مرتاحة فلا تقلق أيضا!!

ولم يكن كلامها هذا يسعدنى، فقد كنت مشتهيا أن تقول لى،

ولــو مرة: إن القاهرة بعدك ظلام. لكنى كنت لا أســتطيع أن أجزم بشىء.

وقمت فى إحدى الليالى من النوم، وأنا أصرخ وأكاد أختنق، حتى إن خادم اللوكاندة سمعنى وجاء يطرق باب الغرفة. وكان سبب ذلك.

هو أننى رأيت حلمًا بشعًا: رأيت كأن رجلا يرقد فى فراشى. وكان يرقــد وحده ليس بجانب امرأة، ولم أســتبن وجهه إلا بعد أن أدرته لأنه كان منبطحا على بطنه. وصرخت مرتين حين رأيته: الأولى لأنه كان وجه جمال أفندى، والثانية لأنه كان يلبس أحد جلابيبى!!

ولم أنم بعدها، وصرت ألعن أبا الكابوس، وأشعلت موقد الكحول وصنعت كوبا من الشــاى، وجعلت أشــرب وأدخن،وأنظر من النافذة على الحارة، فأرى ســكونها وباب الورشــة المغلق بحزام من حديد، والعربــة الصغــيرة ذات العجلة الواحدة المضطجعــة على جنب أمام البــاب. وذكرتنى باضطجاع عطيات، وبعينيها المســبلتين، وبمكانى الخالى فى فراشــى على بعد، وبالعذراء الطيبة، أختها التى لا تزال بريئة، وترقد إلى جانبها... حتى شعرت بالخدر، فرقدت غير مبال بالبقة التى كانت تستأنف سفرها على الحائط.

وعــدت لأراها مرة أخــرى. وكانت فى زينة من شــبابها، غضة طريــة، ورأيتها أكثر مرحا من المرة الســابقة. كانت أشــبه بحجرة فتحت فيهــا نافذة إضافية، فزاد فيها النــور. وذكرت دموعها ليلة ودعتنى، فذكرت أن عوامل متنافضة تثير الدموع.

وفى اللحظـات التى كانت فيها بين أحضانـى، كنت أراها أبعد النسـاء عنى. لسـت أدرى لم داخلنـى هذا الخاطر؟! علـى أنه كان يدفعنى إلى احتضانها بعنف، ثم إلى إبعادها بعنف آخر الأمر!!

* * *

١٣

ووعدت الفيوم هذه المرة لأننى سأقضى إجازة الصيف فى القاهرة ذرفت دمعة على المدينة التى سأعود إليها بعد شهور، لأنها كانت فى حياتى أشبه بالغيبوبة التى تفصلنا عن واقع مؤلم.

واستقبلتنى عطيات فرحة رعناء، كل شىء فيها يتلوى ويتأود. ثم قالت لى وكفاها فوق صدرى، ووجهها مرفوع وأنا واقف:

– عبده! !... آن الأوان... خلاص! !

– ماذا؟!

– حملت! !

– حملت! !

– ألا يسرك هذا؟! قلت وأنا مبتسم:

– وكيف لا؟! وخفق قلبى بعنف شديد.

– وهكذا صدق قانون الوراثة بعد ثلاثة أعوام إلا قليلا يا عطيات، هل أنت سعيدة؟!

فكركرت بضحكة طويلة، وخرجت إلى الصالة وهى تتأود.

وليس فى الدنيا أحد يشتهى أن يذود الذباب عن وجهه.. لأنه لا يتشهى الذباب. والخواطر السود شبيهة بذلك. لكن... كلنا نختار من الأحكام ما يتناسب مع هوانا وما يتلاءم مع راحتنا... فحسب! !

سمعت صوتا يناديني وأنا أعبر الشارع كان غريبا لم يألفه سمعي، وتوقفت، ثم سرت لأنني لم أجد صاحبه. لكنه عاود النداء، فإذا به زميل قديم كان جالسا تحت ظلة إحدى القهاوى يوم الجمعة ووقت الصلاة لم يحن بعد. وكان لقاؤنا أشبه بالتقاء الطلبة في أول يوم من العام الدراسي، وتعانقنا، وذكرنا الأيام الماضية. وأخبرني أنه جالس هنا حتى يحين وقت الصلاة ليصلي في السيدة، فقد بلغه أن فيها خطيبا من نوع جديد، يساير الحياة.

وجلسنا نثرثر، فذكر لي أنه عين في طوخ، وأنه بذلك صار قريبا من بلده، يعني القاهرة!!

وسألته عن فلان، فأخبرني بحاله، وسألني عن فلان، فقلت: لا أعلم عنه شيئا، لكن زميلنا حسني سافر إلى العراق، وعلى مرسي توفي إلى رحمة الله. فقال لي: أما مصطفى رضوان فقد تزوج، وأنت ياعبده، هل تزوجت؟

- الحمد لله!!

- هية... وصرت أبا؟!

في الطريق!!

- رجل. عشت. وعلى فكرة، فإن وباء الزواج تفشى بسرعة بين إخواننا، حتى الذين كنا نظنهم في حصانة أصابتهم العدوى.

- مثل؟

- هل تذكر جمال أفندي؟ (فخفق قلبي)

– أذكره!!

– تزوج!!.. ها.. ها.. ها.

– إنه فى الإسكندرية. (فأجاب وهو لا يزال يضحك).

– أعرف ذلك.

– هل رأيته هناك؟

– لا... هنا.

– هو وزوجته؟

– نعم... سلمت عليه وهو فى الطريق. لم يمهلنى شوقى إليه حتى أتبين أن امرأة بجواره فسلمت. ثم انكسفت.

– هل أخبرك أنها زوجته؟ (فأجاب فى اقتناع)

– لا. فهمت ذلك من نفسى، هيئة الزوجات لا تخفى على عين. مشية الطمأنينة وانعطاف الود. على كل حال يا أستاذ عبده، لقد أعجبنى ذوقه. جميل تزوج جميلة. ستكون ذريتهما من النجف. والمهم عيناها الخضراوان وشعرها البنى... أستغفر الله العظيم. لم يبق على صلاة الجمعة إلا دقائق... وداعا... فرصة سعيدة.

قلت فى نفسى وأنا أهز كفه: بل فرصة من أتعس الفرص.. من أى قبو خرجت لى أيها الإنسان (ورفعت صوتى):

– مع السلامة!!

وشعرت أن أفخاذى مملوءة بالرمل، فقد فتح على الشك نافذتين فى جدار واحد. وكنت أدوس على ورق الخس وقشر الموز، فأمسك

نفسى وأنا على وشك السقوط على الأرض المبلولة، وضجيج الحى يدخل إلى أذنى كأنه لغط على الشط يأتى إلى غريق!! لكننى فى المساء وجدت مرهما وضعته على جرحى، حين لففت من بعد حول عطيات بالحديث فلم تطلق ذكر جمال أفندى. وحين توهمت أنه من الجائز أن يكون تزوج، وأن تكون امرأته خضراء العينين، بنية الشعر.

ومن نفس القبو الذى خرج منه زميلى السابق، خرج حمودة، رأيته جالسا على قهوة الكوكب مساء، وقد بدت عليه آثار النعمة، فعانقته فى شوق.

كان يزور القاهرة، فزار معالم الصداقة. لم ينسها. وجلسنا نتكلم، وكنت عازما على أن أسأله عن جمال أفندى، هل تزوج؟ وسنحت الفرصة، فإذا به يضحك:

– ألا خيبة الله عليك يا أستاذ عبده... خايب على كل حال، مدرس أميرى... أو مدرس حر!! فسألته خجلا:

– ولماذا يا حمودة؟!

– الحلال آخر ما يفكر فيه جمال أفندى... ألا خيبة الله عليك.

فضحكت قائلا:

– بل عليه هو!! وما ذنبى أنا؟!وإذن لم يتزوج؟!

– ولم تعلم بما حدث له؟

– خير

– متأخــر!!... لقــد ندب إلى الديوان فأمن شــر التنقلات، هو فى القاهــرة الآن. وبحكم اتصاله بكبار الموظفين يســتطيع أن يضر وينفع... ممثل يا أفندم؟!... ألا تذكر مسرحياته؟؟

فرجعــت القهقــرى، وكنت كأننــى أهوى إلى عمــق. فى فجوة مظلمــة رطبة عفنة. وأيقنت أن الأقــدار تقذفنى بالحجارة. لكننى ذكرت أننى فى الفيوم وأن زوجتى سترحل معى وقتما أشاء.

***

وقبل أن أرحل بزوجتى وأثاثى إلى الفيوم، قبيل افتتاح الدراسة ســافرت إلى القرية لأودع أهلى. وجدت أمى على السرير نفسه فى تجاه الشــباك المطل على الأرض الملحة. وزينب مخطوبة جديدًا. وامرأتــى حامــل. وصحتى لا بأس بها. لكــن أمانى أمى تجددت، فتمنت أن تــرى لى غلامًا قبل أن تموت. ورأيت فى الأرض الملحة عبر النافذة أعوادًا من الذرة غير متساوية الطول، كأنما زرعت على ارتفاع وانخفاض لكن ذلك كان يعنى أن الجهاد مثمر.

وجاءنى خاطر فى إحدى الليالى – وغراب ينعق على نخلة – أن عطيات مشغولة فى القاهرة بوداع بعض أحبابها مثلما أنا مشغول، وإن كان بــين الشــغلين فارق. وطغــت هذه الومضــة المزعجة على طبيعتى المسالمة ثم استعذت بالله.

ولم تكن أمها ســعيدة بنقلنا حتى قالــت: إن مثل هذا الحادث

لم تألفه الأسـرة قط، فقد قضى زوجها العمر كله فى ديوان الصحة لم ينتقل منه، وأن البعد عن العين قد يسـبب البعد عن القلب. وأن والـد عطيات سـيعمل جاهدا على نقلنا إلى القاهرة بواسـطة بعض معارفه..!!

ثم أخرجت ثديها الكبير المترهل وألقمته للرضيعة فى حجرها، وأطرقت تنظر نحوها فى وجوم. وكنا فى الصالة والأب جالس على الكنبة يدخن ويشـرح النظام الجديد لمنح العـلاوات، وأمامه على الأرضية شبشـبه الملفق. والخادمة مريم تغسـل عدسا فى مصفاة، والراديو يكركر، وإحدى البنات تصرخ من خربشة القطة.

وكنت قد أجرت قبل نقل أثاثى مسـكنا قريبا من المدرسـة. فى نفس الحارة التى تطل عليها الشبابيك الخلفية للوكاندة التى نزلت بهـا. وكان مكونـا من حجرتين اثنتين، بنيتا على الواسـع، يطل على البناء المنخفـض ذى الطبقة الواحدة، يعنى ورشـة النجارة. وقد وقفت أنا وعطيات فى نافذة مسـكننا فـى القاهرة، ونظرنا إلى كل شىء أمامنا نظرة أخيرة. وضحكت وفى عينها دمع حين أشرت بسـبابتى إلى الفجوة المفتوحة فى سـور المدفن، وإلى الأشجار التى طالما سمعنا حفيفها ونحن راقدان.

والنقل من مكان إلى مكان يذكرنا بانقضاء العمر كما سبق أن قلت.

ولذلك فقد أحسسـنا أن قطعة من الشـباب قد جزت من عمرنا، وأننا بدأنا فى استهلاك قطعة أخرى منه!!

وقلت لعطيات، ونحن نهبط سلم البيت لآخر مرة: لاحظى الدرجة المكسورة.. احذرى أن تعثرى.. من الفيوم سنكتب لصاحب البيت نطالبه بإصلاح السلم!! وضحكنا.

وكان أملى كبيرًا جدًا، بعد أن نزلنا المدينة الجديدة، فى أن نبدأ حياة أكثر هدوءا وسعادة. غير أنى أقول: إنه لم يكن بينى وبينها حرب واضحة سافرة، لكن جمال أفندى كان يرقد فى باطنى، وأظنه فى باطنها كذلك، وكان يرقد بينى وبينها فى كثير من الليالى. وكنت أنأى بها ما استطعت عن موطن الخوف فى صمت. كمن ينحى رفيقه عن عثرات الطريق دون أن يشعر، وهما سائران مسترسلين فى الحديث.

وبعد أن انقضت فترة اكتشاف الجديد فى حياة عطيات، بدأت تشكو من الغربة، ولم يكن هذا صريحا، ولكنه كان ظاهرًا فى انقباضها وشرودها وأفكارها السود، لأننى حظرت عليها الاختلاط بالناس.

وأشعرتنى تصرفاتها بطول الوقت، خصوصا فى الليل، حتى صرنا إلى حالة لا نجد فيها ما نعمل. كنا فى كل ليلة نتعب من الكلام ومن استعادة ذكريات القاهرة، خصوصا فى الأيام الأولى من العام الدراسى، قبل تكدس الكراسات على مكتبى. وأخيرًا... كنا نلجأ إلى لعب الورق فنزاوله فى فتور وتثاؤب، حتى إذا ما بدا لى أن أنام، انهزمت أمامها فى غير تماسك، لتنهى اللعب فندخل إلى الفراش.

ثم شغلتنى شواغل المدرسين، وامتص وقتى بعض دروس جاد بها على حب الناظر لى، كانت لأبناء بعض الأعيان هناك، فدرت على ما أنعـش اقتصادياتى، حتى إذا ما عدت إلى البيت آخر الهزيع الأول من الليل، التقطت القلم الأحمر وجلست أصحح وأصحح وأصحح.

ولم تكـن عطيات حيالى كمـا كانت فى القاهـرة. لم يعد ولعها بالقـراءة فى درجتـه القديمة. كانت ملولا كثـيرة الحركة، قليلة النوم. تطل فى المسـاء وأنا مشغول بأعمالى على المنظر المواجه فترى سطح الورشة موحشًا معفرًا، عليه طائفة من الزجاج المكسر، وعلب السـردين التى يلقى بها الجيران من النوافذ. ثم ظلمة تفصل بينها وبـين النوافذ المضيئة فى الحارة الموازية. فتدخل وهى تقول: يا له مـن منظر... أين هذا مما كنا نطـل عليه فى القاهرة؟! ثم تأوى إلى الفراش.

وسألتها عن ذبولها المتواصل، فزعمت أنه من الحمل. أما البكاء فعلته واضحة... أليسـت هذه هى أول سفرة فى حياتها. لم تألف بعدها عن أهلها قبل ذلك. لكن الذى شـغلنى واسـتأثر أفكارى هو رغبتها عنى.

كانت تعيننى فى القاهرة فى كثير من الليالى، وتنفخ فى الرماد إن وجـدت فيـه جمرة، أما هنا، فقد كانت أشـبه بشـابه ترملت حديثًا، جمالهـا فى كفة الميزان، وحياتها متأرجحة بين مغريات مختلفة.

كنت أسهر مع الناظر المسن القوى الحازم الصابر الذى اتخذ منى خزانة يودع فيها أسراره، وركنا هادئا يأوى إليه بمتاعبه. ورأيت شقاءه فى بيته وانقسام أولاده إلى حزبين: حزب يناصر أمه، وحزب يناصر أباه، ورأيت كيد (دليلة) وصبر (أيوب)، والرجل الذى لا يرتاح فى البيت ولا فى العمل، فعرفت الله، وسلمت بقضائه، وقلت: إننى أحارب فى جبهة واحدة فلأتحمل!!

ولعلى كنت أشعر بشىء من الشماتة حين أراها تذبل. إن المرأة المتمردة لا يفت فى عضدها قدر أن تفقد من حسنها شيئا. كانت الطراوة والخصوبة تتراجع إلى الوراء فى كثير من أجزاء جسمها، وكان ذلك يحزنها، فيصبح الحزن بابا للحزن مرة أخرى.

وفى الشهر الثامن من حملها، نشب بيننا خلاف. كانت تريد أن تضع فى القاهرة. لماذا؟ ذلك طبيعى، وإلا من هذه التى ستتولى خدمتها أيام النفاس؟ قلت لها: إن زكية امرأة الفراش كفيلة بذلك، وهى امرأة نظيفة على الرغم من فقرها، وأم خاضت مثل هذه المعارك وأنت تعرفينها.

فصرخت وشدت شعرها، وأجهشت بالبكاء وارتمت على الأرض وحملقت مبهوتا، والقلم فى يمينى، فإذا بلونها يشحب وتدخل فى الغيبوبة.

وجلست أدلك أطرافها وأصب على وجهها ماء. وأفاقت، فبكت حتى نامت.

ودب بيننـــا خصام كان حالـــكا مظلما، لأننا اثنان لا ثالث معنا. وفـــى إحدى الليالى صالحتنى، وهيـــأت لنا بعد صلحنا فترة هنية، قالت لى فيها قبل أن تستغرق فى النوم:

– لا تكـــن عنيدا يا عبده... فكر فى مصلحة المجموع... افرض أن مرضا شديدا أصابنى أثناء الولادة أو بعدها... ألا ترى أن القاهرة أخف نفقة وأضمن موقفا؟

– هيه.

– لن أجبرك. وأنـــا حريصة على ابنك أو بنتك فقط. أما أنا ففى ألـــف مصيبة. أليس مـــن الممكن أن تحب البقـــرة العرجاء من أجل ضرعها الكبير؟!

فوافقت. ولســـت أدرى من أى مكان دخل الضعف إلى نفسى التى بدأت تتماسك. من أجلها هى، أم من أجل مخلوق جديد نحبه قبل أن نـــراه، أم من أجـــل الراحة التى نتطلبها حتـــى فى غير مواطن الراحة... فى السجون!!

وكدت أســـحب القرار بعد أيام قلائل، لأننى رأيت عليها تقدما صحيـــا ملحوظا، وأخذت الطراوة ترجـــع إلى الأماكن التى كانت قد انســـحبت منها، وعادت تترقص وتتـــأود وتتوهج إلى حد معقول. فقلت فى نفسى:

أمرنا إلى الله!!

نعم أمرنا إلى الله. ومع السلامة. سلمى على من هناك.

وسار بها القطار وحدها، وكانوا بانتظارها فى العاصمة. وألقت على ابتسامة وهى فى النافذة حسبتها زهرة. ووعدتها أننى سأخطف نفسى عن العمل لأزورها حتما.

– عطيات!!

– نعم!

– أنت تعرفين كل ما فى نفسى. هل تفهمين؟!

– اطمئن!!

وأطرقت نحو الرصيف، وكان إلى جوارنا أم تبكى وهى تودع بنتها المسافرة مع أطفالها. لعلها كانت فى زيارتها. فقلت: دموع الأمهات... ولكنها أيضا، دموع الحموات...مع السلامة!!

* * *

١٤

وبعد أن غابت عنى أحسست بكآبة الوحدة. وأحسست فوق ذلك أننى مغبون، وأحسست أحيانا أننى مغفل. وعندما كانت عينى تقع على بعض أدواتها فى البيت كنت أحس بالحنين. فما هذه النفس؟!

وكانت إقامتها عند أمها مصدر طمأنينة وقلق. فكنت أرى حينا أن بيت الأهل بالنسبة لمثل عطيات موطن أمان، وأعود حينا آخر فأراه موطن مخافة، لأن أمها كانت باب غير محكم ولا متين، يسمح لبعض الأشياء أن تتسرب من تحته!!

لكننى كنت أذود عن نفسى هذه الأفكار كما يذاد الذباب، من أجل المستقبل. مستقبل طفل يجب أن نفرش له شيئا ناعما لا أن نبطن مهده بالشوك، وعزمت على السفر إليهم دون أن يكونوا على علم. وكان الجو سيئا فى هذه الليلة: شتاء كثير الدموع، قارس البرد، ولكننى كنت مستعدا لأن أحمل أضعاف هذا من المتاعب.

وقالت لى حماتى وهى تفتح الباب: أنت عظيم!! فضحكت. مدحتنى هذه المرة بإخلاص خالص، وكان سر عظمتى فى نفسها هو أننى وصلت فى الوقت المناسب، فقد كانت زوجتى تعانى آلام الولادة. ودخلت عليها حجرة أمها فرأيت على وجهها أمارات

المعركــة، وضحكت ووجهها عابس، فذكــرت وجه أمى يوم كانت تغرينى بالزواج وعلى ملامحها اشمئزازمن الدواء المر.

ثم تركتها وخرجت، وجلســت أسمر أنــا والوالد، وكان أمامه مدفــأة، وبجانبه نصــف عود مــن القصب ومدية، والبيت أشــبه بخلية النحل: حجرة فيها امرأة تلد وحولها المســاعدات، وحجرة فيهــا أولاد يذاكرون ويتجادلون ويصخبــون، وحجرة فيها صغار يتزاحمون على المراقد تند منهم بين لحظة ولحظة صرخة أو ضحكة أو تــأوه أو غناء. والأب قابع فــى الصالة على الكنبة، فوقه معطف قديــم، وتحت رجليه المدفأة والشبشــب الملفق، يدخن، ويتكلم عن الأطفال والأرزاق وذكرى ميلاد كل طفل.

ورقدت فى حجرة الصالون بغطاء خفيف على البساط القديم بين الكراسى المتداعية، وقبل الفجر بقليل، أيقظتنى يد حماتى:

– عبده... مبروك... الحمد لله على سلامتها... وتتربى فى عزك.

– الحمد لله!!

– لها رزقان!!

فقلت ضاحكا وفى صوتى بقايا نوم:

– وللولد رزق واحد!!

– والله دائما فى عون أبيها!!

ثم غاب صوتها فى الصالة.

وقبل سفرى تركت نقودًا لعطيات واجتهدت أن تكون كثيرة. لأننى

ذكرت الدجاجة المسلوقة التى كانت عيون الصغار تحدق بها من كل صوبٍ يوم وضعت حماتى طفلتها الأخيرة، فأحسست على زوجتى خوفًا. إنها ستأكل اللحم فى معسكر متقشف... لكن، ما الحيلة؟!

وفى الفيوم عدت فانشغلت بما كنت فيه، وكانت زكية تقوم بحاجتى مرة أو مرتين كل أسبوع، وناظر المدرسة يحتضننى بحنان، وثقة آباء التلاميذ فى تزيد يوما بعد يوم، وغيرة إخوانى تتزايد. كنت فى ذلك الوقت فىالتاسعة والعشرين من عمرى، ولكنى اكتسبت هيئة ابن الخامسة والثلاثين من كثرة المشاغل، وسيما الهدوء والجد التى لبستها قسماتى.

وكتبت لها خطابا أقول فيه: إن ثلاثة أسابيع بعد الولادة كافية أن تجعل منها امرأة قادرة على السفر، وإننى سأحضر لأصحبها. ولكنها ردت تقول: من أجل الصغيرة التى تلبس ملامحك شيئا فشيئا، أرجو أن تمهلنى حتى الأربعين. وأنا أعلم أننى أسبب لك كثيرا من المتاعب، لكن... سامحنى!!

ولم تكن الطفلة صورة منى كما زعمت أمها. ولكنها كانت صورة من عطيات. والعينان الخضراوان، والشعر البنى، والبشرة الرائقة. فقلت فى نفسى وأنا أقبلها: لا بأس. إنها لا تصلح شاهد إثبات ولا شاهد نفى. وهذا خير لنا، وإن أصرت أمها على أنها تلبس ملامحى قليلا قليلا.

ثم عدنا إلى الفيوم ثلاثة أشخاص، وزدنا رابعا حين استأجرنا

صبية تقوم بخدمتنا. وفرضت الطفلة نفسها علينا، فقد كانت نامية شهية يتفتح الحسن فى خديها كل يوم. وحتى أمها ظهرت وكأنها فى شكل جديد. أصبحت كإحدى بنات إيطاليا، فجمعت بين الحرارة وبشاش البشرة. وسرت فى الطريق الذى يمشى فيه كل والد، فألغيت نفسى من حساب نفسى، ونظرت للمستقبل من أجل غيرى، خصوصا لأننى توقعت أن ولدا ثانيا وثالثا ربما قد يأتى، ما دام قانون الوراثة الذى دافعت عنه حماتى بحماسة قد بدأ يطبق نفسه على مملكتنا الصغيرة.

وكانت حياتى لا تخلو من اللذة، وإن كنت أبذل جهدا. وبدت عطيات فى هذه الفترة أميل إلى الهدوء، وأدنى إلى السكينة: كثيرة الطاعة، قليلة الخلاف تلجأ إلى المسكنات الحلوة كلما أرادت شيئا.

وامتد عيشنا على هذا النحو بقية أيام السنة حتى انتهى العام الدراسى، وأخذت المدارس تغلق أبوابها وتفرق التلاميذ والمدرسون.

وكان هذا أشبه بالفجوة فى حياتنا المنزلية، وابتدأت عطيات تنقلب كما ينقلب جو أمشير، وكان مظهر ذلك إعراضها عن القراءة، وشكواها من الصداع، وعدم استغراقها فى النوم، وفقدها الشهية، وكثرة الأحلام المزعجة عمن فى القاهرة. وقالت لى فى إحدى الأمسيات: أليس من الواجب أن نقضى هناك شهرا واحدا؟ أنت الآن فى إجازة، وليس عندك دروس، فلماذا لا نغتنم هذه الفرصة الواقعة بين إمتحانين ونذهب إلى بيت أبى؟ فقلت لها: إن المنزل

مزحوم بالسكان وليس لنا فيه مكان. على أن مزاجى الصحى يا عطيات لا يحبب إلى السفر، فأنا أشعر كأننى مريض بالروماتيزم. رجلى اليمنى ثقيلة تتوقف فجأة كما يتوقف المحرك عند نفاذ الزيت. فشهقت قائلة: ماذا تقول؟.. إنها فرصة إذن، تعرض نفسك على أحد المختصين فى القاهرة. الصحة يا عبده فوق كل اعتبار.

ووضعت رأسها على صدرى وجعلت تمسح على ثيابى، وكنت أنا أتدبر الموقف، فرأيته شبه معقول. خصوصا لأننى سأكون رفيقها هناك، فأين تذهب إلا بإرادتى؟!..

وحين أعلنت لها موافقتى على اقتراحها، بعد منتصف الليل!! احتضنتنى بشدة. وبكت الصغيرة معلنة يقظتها، فاستدارت إليها وأخذت تكيل لها القبلات على حين استغرقت أنا فى النوم.

***

كان كل شىء فى بيت صهرى فرحا بنا، لأن يدى تدخلت فى النفقات فأمدتهم بالمعونة من أجل إقامتنا. وكنت أنام أنا وزوجتى فى غرفة الصالون على حشية تبسط لنا بالليل. وهناك – أى فى القاهرة – فكرت أن أسافر فأرى أسرتى، بعد أن جاءنى خطاب حول إلى من الفيوم يستدعوننى فيه على عجل، لأن مراسيم إتمام زواج زينب يجب أن تتم.

وقضيت فى القرية أسبوعا كنت فيه كثير المشاغل، فلم تخطر

عطيات على بالى إلا فى صورة الأم، وخطرت مرة أو مرتين لفترات قصيرة فى صورة الزوجة، وكان ذلك ليلا. أما صورة الخائنة، فقد تخلفت فى هذه الفترة.

وكان الفرح يغمر بيت صهرى – مرة أخرى – حين عدت إلى القاهرة. لأن خطابا حكوميا مسجلا كان قد وصل إلى البيت صباح وصولى، وكان يحمل نبأ تعيين الابن الأكبر فى وظيفة كتابية فى وزارة المعارف. وهنأت رشدى وفرحت له. وهنأت صهرى وقلت له: لقد آن الأوان لتحصد بعض ما زرعت يداك. فأجابنى وبقية السيجارة تكاد تحرق إصبعه:

– الحمد لله. أولاد الحلال فى طريقنا دائما.

– هل أعانك على ذلك بعض رؤسائك؟

– لا والله يا بنى. الصغار أكثر مروءة. والبركة فى جمال أفندى، شاب ابن حلال...

فأطرقت ولم أجب، وجعلت أفكر فى هذا الرجل الذى يشبه صومعة القمح فى الريف، والمصنوعة من الطين، المنصوبة كالصنم.

وعادت حماتى لى فبدت أشبه بالباب غير المحكم الذى يسمح لبعض الأشياء أن تتسرب من تحته. لكن لم يكن فى استطاعتى أن أواجهها بشىء، فقد كانت كالكرباج شديد اللسع، ذات إمارة عسكرية، وجسم فيه بقية فتوة، وبطن انشد وارتخى عدة مرات فاتسع وترهل. وشكل مخيف.

لكننى فى الليل حين أويت أنا وعطيات إلى فراشـنا، سألتها عن مدى تردد جمال على بيتهم؟ فقالت:

– أظن أن هذا ليس من شأننا. هل سنشارك الناس فى بيوتهم؟! والمهم أنه لم يدخل البيت وأنا فيه.

وكان فى كلامها قوة الـبراءة، وحزم الثقة، وحدة عدم المبالاة. فقلت لها، وشـىء مـن الهم يهبط على قلبـى، وكثير من الضعف يتسرب إلى نفسى:

– أليس هو الذى ساعد رشدى فى الحصول على وظيفة؟!

– وهل هذا عار؟!

– لا. ليس عارا. ولكنه شىء يلفت النظر.

– نم!!

– ولماذا تتكلمين بهذه الحدة؟!

– أليس النوم خيرا من نشوب معركة؟!

– هل تريدين أن تشعرينى أنك فى حصن؟

– بالعكس. أنا فى الفيوم أكثر جرأة عليك.

– وهل هذا شىء تفتخرون به؟!

– لا تجعلنى أرضع الصغيرة لبنا فاسدا من النكد!! نم!!

– نم؟!وتعيدينها مرة أخرى؟!

– ...

– ولا تردين؟!

– ...

وخيم الصمت البارد. وجاءنى مواء قطة كانت تجوس خلال المطبخ المقفر، وبكاء طفل من أخواتها يزاحم آخر فى الفراش، وشخير الطفلة المزكومة.

وأحسست، بعد فترة، انتظام عطيات فى النوم، فأخذت أستعيد الماضى، وأخمن المستقبل. حتى إذا ما أصبح الصباح، رأيتها لاوية بوزها، مندمجة فى أسرتها، متجاهلة وجودى كأننى غريب، فأحسست أن المعركة لا تتكافأ فيها القوى، فزاد حنقى. واختليت بها لحظة فقلت لها دون مقدمة:

– سنسافر بعد ثلاثة أيام.استعدى!!

فنظرت إلى بجانب عينيها ومصمصت، وعادت فلوت بوزها فى احتقار. فخرجت من البيت وأنا أسب فردًا من أفراده كلما هبطت درجة من درجات سلمه: بدأت بالأم «جان دارك» التى تقود المعركة، وثنيت بالأب صومعة القمح، وثلثت بعطيات ربيبة هذين، ولم أحرم الباقين من شىء من اللعنة.

وحين هبطت الشارع عينت اتجاهى. وقررت أن أذهب إلى أحد الأطباء ليصف لى علاجا ثم أعود، على أن أقضى اليومين الباقيين وأسافر، فإن صاحبتنى كان بها، وإن تخلفت، دبرت وأنا فى الفيوم حلا لهذا الموقف بإرشاد الناظر (أيوب) الذى ابتلى بكيد (دليلة). وقد كنت مثله.

ووصلت إلى محطة الترام وهو على وشك المسير، فحثثت خطاى لأدركه، وقبل أن أمسك بالمقبض الحديدى القريب من الرفرف... توقفت إحساساتى، وانقطعت، تماما!!

ولما استرددت شعورى، رأيتنى راقدا فى فراشى. فى بهو طويل فيه صفان من الأسرة. ومفهوم طبعا أننى فى مستشفى.

وبكيت بحرقة بعد أن تبينت ما حدث. فقد تجمدت ساقى وأنا أثب إلى الترام، شلها عن الحركة فجأة ما عرفت فيما بعد أن اسمه (عرق النسا)، فوقعت وأصبت بكسر فى ساقى اليسرى.

وكان مصباح كبير يلقى بضوئه على المرضى حين أحسست أننى أصبت، وصحبت يقظتى آلام شديدة، فسهرت أئن. وأطفأ الممرض النور فى الوقت المعين، فغابت عن نظرى بقية الأسرة ببياضاتها الكالحة، وأشباحها الصامتة، وجعلت أستمع إلى دقات الساعة الكبرى، وأتصور فى اللحظات التى يهادننى فيها الألم، ما أحدثه تخلفى عن العودة عند هؤلاء الناس، فكنت أتصور عطيات دامعة، وأتصورها غير مبالية، وأتصور طفلة يتيمة ستنسب إلى – حتى ولو لم تكن ابنتى – لو أننى مت فى هذا الحادث.

والفيوم... والناظر... ووجوم التلاميذ حين يسمعون الخبر... والفراش... وزكية... و... فسالت دموعى.

وفى الصباح رأيت صهرى داخلا وفى عينيه هلع وحزن حقيقى، ومن ورائه زوجتى والطفلة على يديها. وجاشت نفسى من جديد،

وخنقنـــى البكاء، لكن كبرياء عارضه، شـــددت أزرى فاســـترددت دموعى، وأبديت عدم المبالاة، وإن بكى الرجل المسن من أجلى، أما هـــى – فكانت تنظر إلى ثم تقلب بصرهـــا فيمن حولى، وفى عينيها معـــان مختلفـــة، أوضحها أنهـــا كانت تخاف ورطـــة، ولما وصلت حماتى، دخلت وكأنها زوبعة، ولم تطل مواســـاتها حتى شـــرعت فى اللوم: "فى العجلة الندامة.. على أى شىء كنت مستعجلا حتى تفعل بنفســـك ما فعلت؟.. هكذا أنت دائما لا تعرف الصبر". فقلت فى نفســـى: إن كان هذا صحيحا، وأنا لا أعرف الصبر، فقد ألقيتم على فيه دروسا خالدة.

وعدت فصاحبت وحدتى وألمى، وألبســـوا ساقى جبيرة وجبسا. وولدت صداقة هادئة بينى وبين ريفى فى دور النقاهة كان يســـهر على حاجتى، ويخفف عنى بأســـلوبه الساذج. وبعد عدة أيام كانت ســـاعات الراحة أضعاف ســـاعات الألم، وصرت كثـــير النوم كأنما لأعـــوض ما فاتنى، وحين كنت مســـتغرقا فيه ضحـــا يوم من الأيام المخصصة للزيارات أحسست بيد تهزنى فاستيقظت.

رأيت جمال أفندى أمامى وجها لوجه، جميلا وســـيما كعهدنا بـــه، يحمل قميصه الأبيض الخفيف ثديان كأنهما فى طريقهما إلى النهود، وتفوح من شعره المرجل رائحة زيت معطر. وفتحت عينى فى ذهول، فمال على وقبل جبينى، وقال لى بحنان زائد:

– لا بـــأس عليك!!.. قدر ولطف.. ســـلامتك يا راجل.. الحمد

لله..لى أصدقاء كثر من أطباء هذا المستشفى وقد أوصيتهم بك...!!

ولم أنبس ببنت شفة، ولكننى تأوهت، وكانت آهتى بسبب آلالم كثيرة أخفها كسر ساقى.وكدت أسأله عن مصدر علمه بالحادث، لكنه لم يمهلنى بل أسرع ووضع جريدة يومية قريبة من نظرى ووضع أصبعه على الخبر، فقلت له: أشكرك.. أجاملك فى المسرات يا جمال.. أهل مروءة طول عمرك!!

وكان صوتى صوتا فحسب خاليا من كل تعبير. وجلس جمال وطال مكثه، وتكلم عن أشياء كثيرة: العمل فى الوزارة وعلاقته بكبار الموظفين، وحبهم له، وهوايته للتمثيل وسيطرتها على قلبه، والدور المتوسط الذى سيأخذه فى مسرحية ستمثل على مسرح مشهور، وأيام زمان، والحب، والزواج الذى يراه أسرًا وسجنًا وذلًا وتغفيلًا..!! حتى رأيت شبح عطيات يرف أمام الشباك المطل على البهو، والواقع أمام بصرى وأنا فى السرير، وكانت تحمل الطفلة، تمشى ووراءها أمها وأخوات وإخوة صغار وكبار ومتوسطون ومن كل عمر. فانعصر قلبى بين كفين، وأحسست أن الأقدار تقسو على جدا، ولم أستطع أن أفهم كيف صنعت لى هذه المأساة!! كان أول ما حاولت أن أراه هو كيف يلتقى نظر جمال أفندى بنظرة زوجتى، وكيف يتصافحان. ورأيت فى عيونهما حنانا خفيفا كعطر جو الربيع لا تحسه إلا إذا تشممته. وضغطة على الأكف وقت السلام. وخلا اللقاء مما يدل على أنهم متباعدون، أعنى أن تعبير الوجوه كان يفيد أنهم يتراءون فى أوقات متقاربة.

وكانت ضربات قلبى متلاحقة حين التفوا حول السرير، وجلس من جلس، ووقف من لم يجد له مكانا. ووضعت حماتى عند رأسى (سبتا) فيه أكل خيل إلى أنه سم. وتلقف جمال أفندى طفلتى من يدى أمها وجعل يقبلها بحرارة. وسمعت عويل نسوة عند باب المستشفى الخلفى، فسألت نفسى قائلا: من ذلك السعيد الذى مات؟! وثرثروا حولى، وضحكوا كأنهم أفراد أسرة، خصوصا عندما جاء رشدى صهرى الصغير وسلم على صاحب الفضل عليه، وتمنيت أن أنفرد بزوجتى، لكنهم استهلكوا الوقت كله، حتى سمعنا تصفيق المرضين وهم ينبهون الزوار إلى أن الوقت قد انتهى. فخرجت الزفة وعطيات بينها، فلم تطق نفسى أن تستمهلها دقيقة ما دامت لم تفطن إلى ذلك من تلقاء نفسها.

وظللت طوال الليل أقلب أفكارى: كانت المصابيح مطفأة، والأمراض ساهرة، وممرضة تهمس مع زميلتها فى الطرقة، حين وصلت إلى قرار فى موقفى كان معناه: أننى صيد غافل، خلت طبيعتى حتى من حرص الطريدة، ووقعت فى شبكة نصبها محتالون!!

وتنهدت بعد سماع الحكم، وقنطرت رجلى السليمة وتركت المريضة مبسوطة فى جبسها. ووضعت ذراعى على وجهى وتملقت النوم، فجعلت أعد: واحد اثنين ثلاثة أربعة... وأسمع إلى الشخير العالى الآتى من الركن، والضحكة الناعمة تأتى من البهو، حتى خطفنى النوم.

* * *

(١٥)

خرجت من المستشفى بوجه حزين سمين أسمر، كأنما لوحته الشمس، وجسم زاد من الرقدة بضعة كيلوجرامات، ورجل لا تقوى على حمل هذا الجسم، فصرت – بعد أن استأنفت مشيى – أتوكأ على العصا.

ولم نسافر من فورنا إلى الفيوم حتى استرددت شيئا من عافيتى. وكانت عطيات فى هذه الفترة أشبه بامرأة ماشية بظهرها تعبر قنطرة ووجهها إلى الوراء وبدأ أبوها يعانى اعتلالا صحيا فزاد اعتكافه، وقلت قيمته، حتى خيل إلى أننى أرى بيتا بلا سقف، ستجتاحه العواصف، وتعزقه الأمطار.

واستجمعت قواى وطلبت منها أن نسافر. فأجابتنى بما أخلف ظنى، وبلهجة لا تخلو من التأنيب قائلة: طبيعى!!... سنسافر. وهل هذا طلب يحتاج إلى أن تعززه بالغضب؟! ولوت بوزها ثم انصرفت عنى.

وودعت بيتهم عصر يوم من الأيام. وكنت أتخيل وأنا أهبط السلم، أن حادثا معينا سيقع، حادثا مؤسفا لا أدرى كنهه، ولكننى أشم رائحته فى الأفق.

ثم وصلنا بالسلامة...

والتقيت بالناظر فقبلنى وعانقنى وأسف لى وهنانى بالنجاة،

وأخبرنى أن بعض أولياء الأمور سألوا عنى فى غيبتى، وأنه ادخر لى خيرات كثيرة، ثم أخذ يحدثنى عن متاعب ولدت فى بيته أثناء هذه الفترة، سببها أن امرأته أصرت على سفرها إلى بعض المصايف هى وولد من أولادها، وتركته هو فى الفيوم. ثم همس يقول بلهجة ذليلة شديدة التهالك:

– آه يا أستاذ عبده!!.. لو أنه لم يكن هناك أولاد!!آه.. لكان لى معها موقف آخر...لكن...!!

ودق بعصاه على الأرض بحركة عصبية ثم لعن أبا الدنيا. وأخرجته من جوه بأن حدثته عن الصحة. وأن ليلة واحدة يقضيها المرء ساهرًا من مرض تعدل متاعب الحياة، ولذاتها كذلك.

لكن حديث الناظر عن قدرة الزوج، ما دام غير مثقل بالأولاد، جعلنى أحس بهذه القدرة. فشعرت ببعض الميل إلى الانتقام من المرأة التى أتعبتنى، وعذبتنى بالحب والكره..

استيقظت من النوم عدة مرات فى ليال متعاقبة، فرأيتها غير نائمة، كانت مؤرقة قليلة النوم، تفتح الشباك فى نصف الليل وتقف فيه مشرفة على سطح الورشة المواجه المقفر الحزين الصامت. والنوافذ تجاهها فى الحارة الموازية مطفأة الأنوار، مقفلة أو مفتوحة. كل الناس نائمون!!

فقلت لها عقب أن صحوت من نومى: عطيات... ماذا أصابك؟!

فقالت بلهجة لا تخلو من الخشونة:

– هل الزوجات ملزمات بتقديم كشف حساب عن ساعات النوم، مثل كشف المصاريف؟

فأجبتها بسخرية وأنا فى الفراش:

– لا، مطلقا. لكننى أرثى لحالك!! مسكينة!!

– وهل هناك ما يوجب الرثاء؟

– نعم. هذا الذى أنت فيه!! فقالت باختصار وقلة ذوق:

– نم!!

فذكـرت قولها ذلك ونحن فى بيت أبيها، وقولها إنها وهى فى الفيوم أشد جرأة على، فأحسست بجوع شديد... جوع إلى العراك، لأول مرة فى حياتى الزوجية مع هذه التى أشقتنى بحبها وكرهها. فقلت وصدرى ضيق:

– تقولين (نم) أيتها الشـريرة؟!... لرجل يسـألك عن سـبب أرقك؟!وصررت على أسـنانىكأنى أطحن ضرسـا بضـرس، وزاد غليانى حتى خيل إلى أنها تسمع الأزيز، لكنها لم تتكلم ولم تلتفت ولم تدخل من الشباك بل بقيت كما كانت.

وخيل إلى أن أمسـك بقدميها وأرفعها إلى فوق وأتركها تهوى إلى الحارة، أو أن أقوم فأرمى بالطفلة على سطح الورشة، أمام عينيها، وبين قطع الزجاج والصفيح وعلب السـردين وأقول لها: إنها ابنتك أنت... أنت!!

لكننى ابتلعت آلامى. وقمت فى رفق وأشعلت النور. وجلست على

الفراش، فدخلت هى من الشـباك ورقدت ساكتة. وتراجع القميص الذى تلبسه عن ساقيها حتى بدا جزء من فخذها، فرأيت الانصقال والنصاعة والنعومة، وخيل إلى أنها ليسـت لى وحدى. وتذكرت أيام المستشفى، ومرضى، وزيارة غريمى، وغربتى بين أهلها، ورهبتى لأمها، وهمومًا وآلامًا ومصائب ومتاعب، فغلى المرجل...

دفعتهـا بظهر كفى فى جنبها وأنا أقول لهـا: تنامين والناس يقظون، وتستيقظين والناس نائمون!... دائما إن شاء الله!!

فحبست آهة، ونظرت بعين فيها فتور وغيظ، ثم سألت جادة:

– هل جننت؟!

– من زمان!!

– ...

وأولتنى ظهرها، فبدت أردافها العالية وخصرها الواهن وكأنما غاظنى حسنها، فعدت أناوش:

– ألا تريدين أن تعرفى تاريخ جنونى؟!

– ...

– منذ عثرت أنت أول مرة فى درجة السـلم المكسورة، فوقعت فى الظلام...وصعدت!! ثم نزلت!!... هذا هو التاريخ!

فـأدارت إلى وجهها وظهرهـا لا يزال ناحيتـى، فرأيت عليه حمـرة وربكة، وظلت محملقة فى عينـى المحملقتين، فلا يطرف واحد منا حتى غضت بصرها هى ثم قالت بصوت أقل حماسة:

– كأن بيننا ثأرًا... هل تنتقم لشيء؟!

فلم أرد. فانقلبت على ظهرها وقالت وهى تنظر إلى السقف:

– لم تبد هكذا فى يوم من الأيام. ثم ثارت فجأة وسألت:

– وهــل أصبح من العارعنــدك الآن أنى وهبتك فى إحدى الليالى أعز ما تملكه فتاة؟!

– لا... ليــس فى ذلك عارًا، العار فى أنــك أعطيته لأول رجل صادفك فى الطريق.

فشهقت فى جزع وعيناها شاخصتان:

– أول رجل؟! فسألتها متشفيا:

– ثان رجل، إذن؟!

فســكتت برهــة كأنما لتوازن بين الشــرين، ثــم تأوهت كأنما أحست مغصًا مفاجئًا، ثم انخرطت فى البكاء.

وأحسست بدبيب الراحة يمشى فى صدرى، وبأن هذه الكلمات كان يجب أن تقال لها من زمن، منذ بدأت أشــك فى ســلوكها. ثم تخيلت كف أمها تهددنى وعينها الشــريرة ترمى بالشــرر. وكان بكاؤها يأتى إلى فى هجعة الليل ناعمًا حزيًنا، يثير الشفقة، فقمت فى صمت وأطفأت النور ورقدت حيث أرقد، وتركتها تئن.

وأحســـت بعد فترة أخرى ببرد الراحــة يتزايد ويتزايد، حتى أمسى وكأنه استرخاء، ومن صميم هذا الاسترخاء الذى يشبه السكرة، أخذ الحنان يتوالد، فأمســكت نفســى وأنا أكاد أمد إليها كفى لأربت

على خدها وأقول لها «معلش». ثم نبت فى نفسى حنق على نفسى لأننى تبينت أننى لا زلت أحب هذه الشريرة. فما هذه النفس؟!

وأطبق علينا الصمت حين كفت عن البكاء، لكن شهقاتها كانت تثور من حين إلى حين، حتى استيقظت الطفلة، فأعطتها ثديها، لكنها بكت كأنها تضامنت مع أمها، وحاولت أن تهدئ مما بها، ولكن عبثا، فثارت عليها ودعت بأن تأخذها مصيبة، لترتاح!!

كنت لا أزال يقظا، فخيل إلى أن هذا القول موجه إلى، فاعترضت:

– ليكون الحبل الذى يربطنا أقل مقاومة، أيضا. أليس كذلك؟!

فصرخت فى الظلام:

– لا تتكلم عن هذا من فضلك فإنه آخر ما يهمنى.

فنهضت من مرقدى كالملسوع، وأشعلت النور، وعدت إليها وبدنى ينتفض قائلا:

– اه؟!.. ماذا تقولين؟!

فلم تجب، وحملقت بعينين خائفتين، ونحت الطفلة بعيدًا عنها لتتلقى وحدها ما عسى أن يقع من خطر. وظلت جامدة وصدرها العارى يعلو ويهبط كأنها على أبواب الاحتضار، ولم أرها مدة عشرتنا خلال أربع سنوات تقريبا فى هذا الوضع قط. كان خوفا فاتنا، وضعفا يدعو إلى الصيانة، لكننى عدت أقول وأنا ثائر:

– ماذ تقولين أيتها الغادرة؟

وهجمت عليها فلطمتها لطمتين، فالتهب خداها، ثم قبضت

على عنقها، فقالت لى من فورها باستسلام متخاذل:

– عبده... أتريد أن تقتلنى؟!

ولمعت عيناها بالدموع كما تلمع المرأة المبلولة، وخنقتها الشهقات، فارتخت يدى، وارتميت على صدرها وصرت أبكى كما يبكى الطفل.كنت كأننى محتاج إلى أن تلفنى بذراعيها وتقول لى: (معلهش). وظللت هكذا فترة جاوبتنى فيها بمثل بكائى حتى فتر الغضب. وانفتح باب الرضا شيئا ما، فرأيتنى أبحث عن شفتيها. لم تتكلم، ولم تعارض، ولم تبادلنى قبلة بقبلة، بل تركتنى أصنع ما أشاء فى أعضائها المرخاة. كأنها جثة. وكنت قبل ذلك لم أذق طعم الاستسلام لأنها لم تستسلم، فزاد جوعى إليه حتى وصلت إلى آخر الشوط. ثم... أحسست بالندم. لقد هدمت برجلى ما بنيته بيدى!!

* * *

وفى الصباح وجدت نفسى طريًا قابلًا للتفاهم، فشرعت أعاتبها، فإذا بلؤم الطبع ينبع من أعماقها مرة أخرى. وجدتها معتزة بالمعركة التى كسبتها وأنا الذى ألقيت سلاحى، ورفعت الراية البيضاء، لكننى لمت نفسى. قالت لى وشىء من الحرص على المصلحة العامة يلون كلامها، وإن كان الموقف تهديدًا فى تهديد:

– هل تظن أنه من الممكن أن تسير الحال على هذا المنوال؟ ليست هذه طريقة معيشة!!

– ماذا تقترحين؟

– أن تعود إلى هدوئك القديم. فأخذت أردد وأنا مطرق:

– أن أعــود إلى هدوئــى القديــم... هيــه... هدوئــى القديم... هدوئى... القديم!!

– نعم، هذا هو اقتراحى.

فقلت بغتة، كمن وثب على خصمه وهو غافل:

– عطيات... أنا غير راض عن سلوكك أيام كنت فى القاهرة. لماذا تفتحين على باب الشك؟!

فحملقت حتى بــدت خضرة عينيها فى لون البســلة، وأرخت فكها السفلى، وقالت وكأنها أبرأ من على الأرض، قالت وهى تشير إلى صدرها بسبابتها اليمنى:

– تشك فىّ أنا؟!

– نعم.

– أفهم قصدك، لكن...

– لكن...

– ألم يكن ممكنا أن أمنح هذا الذى تعنيه شيئا منحتك إياه ذات ليلة؟!

قلت فى تفلسف:

– لو كان ممكنا لحدث. فسألت فى انهزام:

– وكيف؟!

– لو توفرت الأسباب لوقع الحادث، وبما أن الحادث لم يقع فمعنى ذلك أن الأسباب لم تتوفر، ككل شيء فى الدنيا!!

فقالت فى استصغار لا يخلو من العجب:

– أوه... ومن أين هبطت عليك كل هذه الفلسفة؟!

فقلت فى مرارة:

– من أيامك ولياليك.

– ليس فى نيتك إذن أن تعود إلىالمسالمة.

– إنك لم تجيبى إجابة مقنعة حتى الآن.

– ماذا تريد أن أقول؟

– قولى ما تشائين. فردت فى عناد كأنما لتثيرنى:

– أنا أحبه!!

فذهلت وسكت. وأخذت تنظر إلى مرتقبة ماذا أصنع، وكنت أعلم أنها صادقة فيما تقول، صادقة جدا، وإن ألقت هذه الكلمة بطريقة امرأة تريد أن تثير رجلا، وقد تركت باب الرجعة من خلفها مفتوحا. فأحسست أننى أتضاءل أشبه ما أكون برجل مقتنع بالانتحار، ولكنه لا يقدر على الإقدام. وطال الصمت فترة قلت لها بعدها:

– هل تتكلمين جادة؟

ووددت فى قرارة نفسى أن تقول: لا، متشبثا بالأوهام، باكيا على قلب لم تبك صاحبته على، أو لم تعد الآن مبقية على عشرتى.

فلما لم تجب عدت أسألها:

– عطيات!!... هل تتكلمين جادة؟!

– ...

وكانت تعبث بأصابعها، وتنظر إلى طلاء أظافرها الذى تآكل فى عدة بقع.

فعدت أقول:

– إن كنت شجاعة، فأجيبى بنعم أو...لا!!

فهمست دون أن تنظر إلى:

– أنت تعرف الجواب!!

وتركتنى وخرجت من الحجرة وذهبت إلى غرفة أخرى، فأحسست أننى ضئيل، صغير، مخلوق من مادة هلامية، محتاج إلى قوقعة أرقد فيها وأمشى بها لتصون حياتى، فتنهدت، واغرورقت عيناى بالدموع.

وظللت جالسا حيث أنا، ثم قمت ففتشت عنها فى الشقة، فإذا بها منزوية تبكى، وقد نجمت تحت عينيها نصف دائرة بنفسيجية كانت ظاهرة فى وجهها الأبيض. وانقضى اليوم خصام.

ودخل الليل، فوجد كلا منا فى مكانه حيث كان فى النهار. وتذكرت ما فعلته معها ليلة أمس، بعد أن قسوت عليها، وشفيت غليلى وأذللتها، تذكرت أننى هدمت برجلى ما بنيته بيدى، فصممت على الصمود. وكانت الطفلة تبكى فتلقمها الثدى فى صمت خشية أن تقول كلمة فأتدخل.

وتركت حجرة نومنا بعد ليلتين، ونامت فى حجرة أخرى على الأرض المفروشة، فعز على أن أقدم على عمل. وكنا نجلس على الأكل فنسمع مضغنا وأصوات الملاعق، وكثيرًا ما كنت آكل وحدى.

وفجأة تذكرت بعض ما قرأت، وكنت سائرًا وحدى مساء متوكئا على عصاى الغليظة، متدافعًا بجسمى الذى يتزايد وزنه باستمرار – وبعض الناس يزيدون على الهموم – تذكرت رجلا عظيما... أشقته امرأة، وجه الشبه بينى وبينه ضئيل، لكننى ذكرته، كما تذكر النمر إن رأيت القط. ذكرت (تولستوى) الفيلسوف الروسى الإنسانى المسالم، وكيف شقى بالنساء. وذكرت قصة له قرأتها وأنا صغير، وكان أحد أساتذتها مجنونا بها هى «أنا كارنينا».

وطافت بذهنى خيالات القصة، وأنا أنظر فى الأفق المظلم، وعصاى تخلق على الأرض طرقات رتيبة. فرأيت حسناء بهرها النور، وخدعها السراب، حين أحبت ضابطًا وسيمًا، فباعت بسببه فى سوق الخسارة ولدًا وشرفًا وبيتًا. فلما وصلت إلى آخر الشوط، تبينت أن النور ظلام، وأن النهر سراب، فأسلمت عنقها الذى كان يقلده عشيقها كل ليلة عقدا من القبلات، أسلمته لعجلات القطار، فصنعت نهاية دامية لليالى الهمس واللذة.

وكففت عن التفكير لأن رجلى أوجعتنى، فاعتمدت على العصا جيدا حتى جلست على أحد الكراسى فى مقهى قريب. ثم عدت إلى البيت بعد ساعة.

وكان الخصام لا يزال يرفرف على أركانه، كأنه راية سوداء على برج سجن. وسهرت أكتب خطابا إلى إحدى المكتبات فى القاهرة، طلبت فيه أن ترسل (أنا كارنينا) بعنوانى. وعندئذ وضعت القصة فى طريقها، وكنت واثقا أنها فهمت قصدى، لكنها قالت لى ذات صباح بلهجة صارمة: الطفلة مريضة، جدا. يجب أن تذهب إلى طبيب. وانفتح باب الكلام. وتعرضت الطفلة للخطر، فى الوقت الذى جاءنا فيه خطاب من أهلها يقولون فيه: إن والدها مريض ويرجو أن يراها.

وتحرج الموقف، وبدت عطيات ذليلة كأنها فقدت كل أسلحتها، وخيل إلى أنها ستموت هى، وأن الطفلة وجدها سيشفيان. وأحسست مقدما بحرقة الحزن. فحزنت على نفسى!!

سألتها فى جد لا أثر للحنان فيه:

– ماذا تريدين أن نفعل؟!

فقالت باستسلام وعلى خدها أثر دموع:

– ليس لى رأى. اصنع بنا ما تشاء!!

وكنت أخاف من استسلامها، كان ضعفها قويا، يجعل أقسى القلوب يحن، فتنهدت، وقمت أنظر من الشباك.

كانت هناك قطة تسحب ذيلها بخيلاء على سطح الورشة، باحثة عما تأكل فى بقايا الطعام التى يقذف بها السكان القريبون. وكان الحر خانقا، والوقت عصرًا، وأفكارى كالقناة الراكدة. لكننى

شعرت أن الإنسانية تتطلب منى أن ألبى طلب الرجل الطيب. أليس مــن الجائز أن يموت دون أن أحقق له هذه الأمنية؟! والطفلة!!... يراها طبيب مختص فى القاهرة. وابتســمت حين تذكرت حادثتى يوم سافرت لأتداوى فانكسرت رجلى. لكننى صرت مقتنعا بضرورة السفر. فهززت رأسى وأنا وحدى موافقا على الفكرة.

ثم استدرت إليها وقلت لها، دون أن تتغير ملامح وجهى:

– مسافرون غدا!!

فأطرقــت نحــو الطفلة فى حجرهــا، وتنهدت وهــى تنظر إلى وجهها.

***

تذكرت قرب انفضاض السوق، أو انتهاء المولد ليلة دخلنا بيتهم فى هذه المرة. كانت علامات (التشطيب) ظاهرة على البيت، فخيل إلى أن الرجل سيموت، حتما، فآسفتنى هذه النهاية.

وكان اهتمامى بصهرى أشد من اهتمام أولاده وزوجته به، ولعل سبب ذلك أننا من طائفة واحدة، طائفة الرجال المقهورين المغلوبين الراكبين فى سفينة ضالة، سيرها خير من غرقها.

كان فى فراشــه هزيلا، مخنوق العينين، يشكو دوخة وصداعًا، من ضغط الدم. وكان فى إجازة. ولما خلا بنا المكان شــرع يشــكو من المرض، ثم عرج على الشــكوى من رداءة الأكل، مســلوق، مسلوق،

مسلوق!! ثم بدأ يضج من حرمانه من التدخين وقال لى:

– هو زميلى فى الهموم... أليس ذلك خيرا من النفخ على الفاضى يا عبده يا بنى؟!

ثم تلفت كأنه يستوثق من خلو المكان، قبل أن يستطرد:

– والظريف فى الموضوع أن الطبيب أمرنى ألا أنقاد لأية فكرة محزنة والأفكار كلها محزنة!!. لقد اكتشفت أخيرا أننى فى بيت غريب. وسكت ثم جلس فى فراشه وقال:

– سيجارة واحدة، سأدخنها قبل أن تأتى أم رشدى إلى هنا.. سيجارة واحدة. هل فيها موت؟!.. ليكن!!

وأشعلها خائفا من شيئين. ثم أخذ يحكى:

– اكتشفت بعد أن رقدت أننى فى بيت غريب. أسرة مضحكة والله العظيم. عيشتنا خطف فى خطف. ورفع كفيه إلى السماء وابتهل: أرحنى بالموت. فقلت: لا سمح الله، بعد العمر الطويل. فاستطرد:

– إذن أنت تدعو على بطول العذاب. وابتسم كأنه متهيئ لنكتة،وقال: (من خطف يخطف ولو بعد حين). هل تتصور أن رشدى ابنى الذى لم يمض عليه فى وظيفته إلا بضعة شهور، يريد أن يتزوج؟ خطفته إحدى صاحبات أمه، فهو لا يخرج من بيتهم، ويريد أن يتزوج بنتهم وإلا انتحر. بيت عفاريت. أليس هذا مما يقرب المنية؟

فذكرت كيف تزوجت عطيات، وكيف تزوجت أختها من قبل. ومشـــروع زواج رشدى، وحياة هذه الكتيبة إن قال لهم هذا الرجل يوما: سلام عليكم، ومات!!

ودخلت أم رشـــدى، حماتى، بعـــد أن كان زوجها قد انتهى من الكلام، فتشممت هواء الغرفة باحثة عن السجاير. فكذبناها.

أمـــا الطفلة فقد قال لنـــا الطبيب: إن نزلة معويـــة حادة تهدد حياتها، فشـــعرنا بالحسرة نحن الاثنين، وأحسست حرقة الحزن مقدما إن ماتت وخيل إلى هذه الأم الحنون، تود لطفلتها أن تموت، ليكون الحبل الذى يربطها بى أقل متانة وأسهل قطعا.

ولفتنى إحساســـات متضاربة، لا أذكر أيها كان أقوى. غير أننا فى اليوم التالى، رأينا أمارات الموت بادية على وجه الطفلة. وكانت حماتى فى حماســـة من سيدخل معركة عادلة، دفاعا عن حق، وعلى ملامحها تشـــاؤم من يعرف المســـتقبل، وعطيات لا تكف عـــن البكاء، وصهرى الكبير، يدعو ويحوقل. وأنا... كما أنا، لا أدرى حقيقة شعورى.

وفى المســـاء أحسست أن الجو خانق، وأنه ينبغى لى أن أتنفس، فخرجت إلى الخلاء، وعدت فى وقت متأخر، فاســـتقبلتنى حماتى عنـــد الباب بوجه حزين مهزوم، فعرفت الخبر. عرفت، ما تعرفه أنت بسهولة، أن الطفلة قد ماتت. فخفق قلبى خفقتين، وتنهدت، ودمعت عيناى، لكن شعورى كان مبهما، غامضا، متداخل المعانى، لا أكاد أتبين فيه شيئا معينا.

وكانــت عطيات منكوشــة الشــعر تنظر إلى صورتهــا الصغرى المسجاة أمامها بحسرة وهلع، وتلقى إلى بنظرات مستفسرة كأنها لا تصدق أنى حزين!!

نسيت أن أقول لك....

نســيت أن أخبرك باســم الطفلة من أول الأمر. مــاذا تظن أنهم سموهــا؟ كان اسمها «جمالات» ولم أســتطع يومئذ أن أعترض على الاسم الذى كان يذكرنى بغريمى... لأنه كان اسم حماتى!!

* * *

(١٦)

وتركنا صهرى كما كان متشـائما مريضا. وتركنا جثة الطفلة فى إحدى مقابر القاهرة. وعدنا إلى الفيوم، يظللنا إعراض علله كل منا بحزن الآخر على الطفلة المفقودة.

ولمـا دخلنا البيت، جأرت عطيات بالبكاء حين وقع بصرها على حاجات الطفلة وملابسـها. وأحسسـت أنا أن الفجـوة التى بينى وبينها أضحت أكثر اتسـاعًا وظلمـة. فكأنها كانت قبل ذلك مغارة تؤنسها شمعة، صغيرة وحيدة، ثم سقطت منطفئة!!

لكننى احترمت حزنها...

وقد تسألنى عن مدى حزنى على الطفلة، فأقول لك: إننى دفنت شـكوكى فيها فى لحدها الصغير، وبكيـت عليها بإخلاص. ولولا أنها كانـت صورة من أمها، لخيل إلى أننـى رأيت ملامحى عليها واضحة قبيل وفاتها بساعات.

والذى لم يجعلنى أعيش فى ذكراها، أنى كنت مشغولا بأمرين: بالخطة التى ستنتهجها معى عطيات، وبالوقت الذى ستحمل فيه جنينا جديدا.

وكانت عطيات ساهمة حزينة، لابسة السواد على التى لم تكمل العـام الأول من عمرها القصير. وشـغلت أنا بدروسـى الخصوصية

وبسهرى مع الناظر، وحلا لى أن أتركها فريسة لآلامها.

كنا أشبه باثنين قضيا مأربا مشتركا وانتهى أمرهما لكن كلا منهما خجل أن يقول لصاحبه: «خلاص، فلنفترق إذن».

وتحسنت صحة أبيها شيئا ما، وإن بقى مهددًا بالخطر، وعلمت بعد ذلك أن حماتى قد استسلمت لرغبة ابنها، وأنها زوجته ممن خطفته.

لكن حادثًا مهما شغلنى عن عطيات وآلامها، وجعلنى أكثر عزلة عنها، ذلك هو موت أمى.

لقد حقق الله لهذه السيدة معظم أمانيها لأنها زوجت بنتيها.

واشتد بها المرض عقب زواج زينب بستة شهور. وتلقيت برقية بوجوب حضورى فسافرت. ووجدت أختى اللتين انفصلتا عن شجرتنا واتصلتا بأشجار غيرنا، قد جلستا معها فى الفراش. ولم تكلمنى لأنها كانت قد فقدت قدرتها على النطق، وخيل إلى أنها لم تعد تسمع.

كانت (أمانة) تركها الموت عندنا مؤقتا ريثما يعود ليحملها.!!

وفى فترة من فترات الصحو، فتحت عينيها، وطرفت أهدابها كأنها عرفتنى، ثم... نامت ثانيا ووجهها إلى الشباك المطل على الحقول الذى أشارت منه يوما لترينى أرضا تأكل بذورها أولا بأول.

وأخذتها بين ذراعى على الرغم من أختى فى لحظتها الأخيرة. وخيل إلى بعد أن قضى الأمر أننى – وأنا رجل – أشد جزعا عليها

من الولايـــا. لقد كن فى أحضان تفيض عليهـــن الحنان، أما أنا فقد عشت محروما.

ثم تركت البيت مظلما مقفرا مغلق النوافذ، وأخذت مفتاحه فى جيبى وعدت إلى الفيوم.

وجـــدت عطيات مريضة العينين، كأنها ظلت تبكى طول ســـتة أيام غبتها عنها، وابتدرتنى قائلة بعد أن دخلت:

– أما كان واجبا أن ترسل إلى فأسافر؟!

– شكرا. ذلك لا يغير شيئا من الواقع!!

– المشاركة فى الواقع لا تعنى تغييره.

– صحيح.

– تعيش.

– عشت.

وبعد هـــذه العبارات التى رسمت قوانينهـــا التقاليد، عدنا كما كنـــا لمدة شـــهر، أفقت بعده علـــى أننى أعيش جنبـــا إلى جنب مع امـــرأة معرضة تماما، تحتضنها فكـــرة أو تحتضن فكرة، كما ترقد الدجاجة على بيضها مدة يأتى بعدها (الفقس)...

وشاركتنى ميولى ذات ليلة، لكن بوجه جاد كأنها مخطوفة، فذكرت الليـــالى القديمة، ليالى كانت تتوهج حتـــى تدفئ الفراش، وليالى كانت تبحث عن الجمرة فى الرماد فتخلق منها نارا. فندمت، وخيل إلى أننى أكلت على مائدة بلا دعوة، فسلقتنى عيون الآكلين حتى سممت طعامى.

وفى إحــدى ليالى الخريف، عدت باكرا من الخارج. ولما دخلت البيت أحسســت أن كابوسًــا يرقد على وأنا غير نائم. وأحسســت انقباضــا يخنق نفســى. فأطللت من النافذة على الحارة الســاكتة، فوقع بصرى على باب الورشة الموصد بحزام الحديد، وفانوس على المدخل، ذابل، شــعلته كبقايا الزهرة توشك على السقوط، وشيئين آخريــن كانا أشــبه بأفــكارى: عربة اليــد ذات العجلــة الواحدة المضطجعة على جنبها فى استســلام، وقدر الغــراء الكبير المهبب المتروك على الكانون المنطفئ...

فتنهدت واستدرت داخلا، فرأيتها تبكى، قلت لها:

– لماذا تبكين؟!

فنظرت بعينين متضعضعتين:

– ألم تعرف بعد لماذا أبكى؟!

وشممت رائحة التحدى من كلامها وخيل إلى أنها تشــد الحبل لينقطع، فثار عنادى حتى قلت بلهجة لا تخلو من السخرية:

– ذكريات!!

– ذكريات؟!

– طبعا ذكريات. وإلا فمم تبكين؟!

قالــت وهى تنظــر لقصة (أنــا كارنينا) الموضوعــة على منضدة قريبة، وكانت كأنها تناجى نفسها لا تخاطب غيرها:

– يظهر أن الاستمرار فى هذه الحياة أصبح محالا!!

وكانت لهجتها مشحونة بالتصميم، فخفق قلبى، وأحسست بالذعر يمشى فى أوصالى، وخيل إلى أن البيت بدون وجودها ظلام وبرد تملؤه الأشباح. وغاظنى تناقضى، فصرخت فى وجهها:

– ومن ذا الذى يمسكك فى هذا البيت أيتها الشريرة. وأنا أعلم نواياك جيدا، وأعرف حقيقة الخطة التى رسمتها. إذن فلماذا جئت معى إلى الفيوم؟! فحملقت مذهولة ولم تنبس ببنت شفة. وكانت ترسل دموعا كبيرة فى صمت، تنحدر الواحدة إثر الأخرى على خدها الشاحب، كأنها لؤلؤة. ووجدت نفسى مدفوعا إلى الأمام، نحوها، كأنما لأحتضنها وأعتذر، لكننى تماسكت. وفجأة، وجدتها تشق ثوبها الأسود وهى تصرخ ثم انفجرت باكية.

وأسندت رأسها إلى المنضدة، فبدا صدرها إلى ما تحت ثدييها من ثوبها المشقوق، وكانت خصلات ثقيلة من شعرها البنى تغدو وتروح من اضطرابها فى البكاء. فقلت لها وأنا لا أزال متماسكا:

– أنت صادقة، فاستمرار الحياة على هذا الوضع محال حقيقة!!

– ...

– وأنا صادق أيضا، لأنك صاحبة خطة!!

– ...

– إذن تفضلى واطلبى منى ما تشاءين أجبك إليه حالا.

فقامت واقفة كأنها ستستل سيفا من غمده وتبارزنى به، وقالت بين شهقتين:

– هل تعدنى؟!

– أعدك!!

– دعنى أسافر إذن.

– لماذا؟!

– حتى تنصلح الأمور.

– مستعد على شرط ألا تعودى إلى هنا مرة أخرى.

فلم ترد، وتركتنى وخرجت، فأبدلت ثوبها المشـقوق، وعادت إلى وعلى وجهها تصميم من عزم على بيع الصفقة. مغبونة مغبونة، خاسرة خاسرة، ليكن.

وأخذت تجمع ملابسها، وأنزلت حقيبة من فوق الصوان وجعلت ترصها فيها. فقمت وأمسـكت يدها برفق، وكانت فى كفى رعدة، وفى نفسى تخاذل.

لم ترفع إلى بصرها، فقلت لها وأنا مهزوم:

– عطيات!! ألا تلتمسين لى عذرا؟ أنا أحاول أن أحتفظ بك، وأن أقفل النوافذ التى تطفئ شموعنا، لكنك... لا تساعدينني!!

– أتركنى!!

– هل أنت مولعة بإذلالى؟ هل تتلذذين من ركوعى يا عطيات؟!

– أنت لا تثق فى!!

فتمتمـت لا أدرى مـاذا أقـول "آ... إن... آ.." وكانت نظراتها لامعة مترقبة، فذكرت وأنا واقف تجاهها أشـياء كثيرة... كثيرة

جدا، أنت تذكرها. وأخيرا أجبت:

– أنا مستعد أن أمنحك هذه الثقة على شرط أن تفسرى لى أشياء معينة. كنت أتكلم بهدوء، الذى يسرد مأساة فرغ من الإحساس بنارها.

لكن عطيات ثارت قائلة:

– أى أشياء؟! أنت رفيقى فى الماضى وتعلم كل شىء، فلماذا تحاسبنى الآن وأنت تحت سلطان الغيرة؟ لا... إن الاستمرار فى هذه الحياة أصبح محالا!!

وانكفأت على السرير تنتحب، وتراجع ثوبها الأسود عن نصاعة ساقيها، وخيل إلى أن رجلا ثانيا بانتظارها هناك متلهفا أن تصفى حسابها معى هنا ليعيشا تحت سقف واحد، وظهر هذا الرجل فورا فى صورة جمال أفندى.

فدببت إليها واحتضنتها. كانت شكوكى مصدر قسوتى وحنانى، ومحركا يدفعنى فى كل اتجاه، وإلى الأمام وإلى الخلف...

وهدأت ثائرتها شيئا ما فسألتها: هل نتعشى؟!

– شبعنا!!

– آه... هل ننام؟!

– أحسن!!

– إن بات الشر مات!!

– .....

– هل أطفئ النور؟!

– أطفئ!!

وساد الغرفة ظلام. وكانت نسمات الخريف تزقزق فى مصراع قريب، وأنفاس عطيات ملتهبة سريعة، فلما مددت إليها كفى ونحن راقدان أتحسس شعرها، نحتها فى رفق. فسألتها كأنما لأعتذر بالنيابة عنها:

– إلى هذه الدرجة تريدين أن تنامى؟! لننم إذن!!

* * *

وكانت آثار الهم بادية عليها وقت الصباح. وفى طريقى إلى المدرسة – حين واجهت نفسى بالحقائق – أننى أحتفظ بجثة، وأن ذلك خطأ واضح وعمل غير طبيعى.

فثرت، وكدت أرجع من الطريق لأذهب إلى البيت فأقول لها كلمة واحدة ثم أعود إلى المدرسة، فإذا ما رجعت إلى البيت آخر النهار، وجدته خاليا منها!!

لكننى لم أفعل. وكان ذلك لسبب واحد إلا أنه وجيه. هو أنها تتمنى أن تسمع منى هذه الكلمة، وأن الكرامة تحتم على أن أحتفظ بها حتى لحظة أشعر فيها أنها تريدنى، وفى هذه اللحظة وحدها... أنحيها عنى!

وخيل إلى أن الظروف لم تمنحنى هذه "اللحظة" فزاد تشبثى

بها وزاد شـرودها منـى. وكانت لا تكف عن البـكاء ولا عن طلب الخروج إلى الخلاء، وكنت أسـير إلى جوارها بين المشاهد الجميلة صامتا وهى صامتة وبخطوات جنائزية ننصت إلى وقعها معا!!

وخمنت أن عطيات تنتظر شـيئا معينا، سيكون فيه إنقاذها ولو مؤقتا. ومن الغريب أن تخمينى أصاب. فقد تلقينا برقية من القاهرة تفيد أن أبا عطيات نكس، وعاوده المرض، وهو يلح فى أن يراها.

وقلت لها بعينى: إننى أشـك... أشك فيما تدبرين. فلم تخفها نظراتى، بل كانت فى مظهر التى اتخذت قرارًا نهائيًا هامًا.

كانـت النهاية تزحف نحونا كما يزحـف الليل... ولا مفر من الليل. وأردت أن أستسـلم قليلا قليلا بدلا من أن أتداعى مرة واحدة فتغافلت، وتركتها تصنع ما تشاء. وعلى ضوء ما سيقع ستأخذ خطة جديدة.

ورجعت من المدرسـة فوجدت الشقة صامتة. فتحت بمفتاحى، لأننا كنا قد استغنينا عن الخادمة بعد وفاة الطفلة، ثم دخلت.

وكان أول ما عملت هو أن فتشـت صوان الملابس فرأيت أنها قد اسـتصحبت منها القدر المهم. قدرًا يـدل على الإقامة الطويلة. ولم تكن فى حاجة إلى أن تهرب شـيئا لأن أمهـا قادرة على أن تصادر ممتلكاتى الشـخصية، فهى من باب أولى، قـادرة على أخذ حقوق بنتها.

وعلـى المنضدة وجدت ورقة مبسـوطة فى مـكان يلفت النظر،

فتلقفتهـــا بلهفة، وقرأت ما فيها ببصر زائغ. كانت مكتوبة بالقلم الأحمر الذى أصحح به الكراسات؛ هكذا بلا مقدمة، وبدون أن تذكر اسمى ولا اسمها:

«قلت لك إن الحياة على هذه الحال أصبحت محالا، لذلك قررت أن أبقى فى القاهرة، حتى يتأكد الطرفان معا أنهما يســتطيعان أن يستأنفا الحياة بشكل أهدأ!!».

هكذا بالضبط كأنه تقرير بوليســى، أو حكم من إحدى المحاكم. وبخــط كخط (المحضرين) يقرأ بصعوبــة. فزاغ بصرى، وخيل إلى أننى أرى كل شىء فى الحجرة مقلوبا، السرير، الصوان، والصورة التذكارية التى جمعت بينى وبينها بعد أن جمع بينى وبينها الحظ العاثــر. وتنهدت فى حرقة، وتمنيت لو أنها كانت أمامى، لأعمل عملا... لا أعرف ماذا يكون!!

وأخذت الحاجات تسترد أوضاعها الأولى فلم يعد شىء مقلوبًا؛ إلا الصورة، صورتى وصورتها فى الإطار المذهب، فإنها لم تسترد وضعهــا الأول، لأنها كانت مقلوبة حقيقة!! قلبتها بيدها قبل أن تخرج!!

وجعلت أشكو للناظر فى مساء هذا اليوم ما أصابنى من تصرفات عطيات، فدق بعصاه على الأرض وقال مبتســما فى استصغار: وهل هــذه حوادث؟.. أنت رجل طيب. تعال إلــى بيتنا تعال، لترى ما تفعله الحزبية.

وضحـك حتى انقطعت أنفاسـه، وقـال لى: اصبر يـا أيوب.. السفينة المشحونة (صبرا) لا يستطيع البحر أن يبلعها!!

ولم يكن فـى مقدوره أن يقول أكثر من هذا، لأننى اسـتحييت أن أصارحه بقصتى من أولها. فهى قصة شـاب مغفل، مغلوب، فى ضعف مدمن الأفيون أو قوة المريض الناقه.

وتشـابه وجه الأيام والليالى فلم أعد أفرق بين الأوقات، كأننى كنت فى ذلك الحين أستعرض كتيبة من الزنوج.

وأحرقت نفسى بالعمل، لأنسى، أو لأتدبر ماذا أعمل!!

* * *

(١٧)

لا أســتطيع أن أنكر أن القلق كان يعذبنى. كنت أنظر فى هجوع الليل على السطوح الموحشة حتى تنهار ساقى ثم أدخل إلى الحجرة لألقى نظرة على ما فيها كأنى أفتش عن عطيات. وإن كان إحساسى نحوها حبا ونقمة.

وطالمــا ذهبت إلى صورتنا التذكارية فقبلتها، ثم تراجعت إلى الــوراء. وتأملتها على مهل، كمن يتأمل نقشــا، ثم هززت رأســى وتساءلت عن مغزى قلبها الصورة!!

واستبد بى القلق بعد عشرين يوما، فكتبت خطابا.. إلى من؟!... إلى أبيها. أقرب الناس لى. الرجل الذى ينتمى إلى نفس الفئة التى أنتمى إليها. المغلوب كأنه طائر بجناح واحد. وكان الخطاب مؤثرًا جدا دمعت عيناى بعد ما أعدته على نفســى، وتصورت أفراد هذه الأســرة وهم يقرءونه، وأن الأب احتد وانفعل وبدا حازما على غير طبعه، وإن الأم لطمت خديها من خيبة بنتها، وأن...

أما أهم عبارة كتبتها لهم، وقضيت وقتا طويلا فى البحث عنها، فهى أننى قلت:

«إن عطيــات تعلم أننى أحبها، ولكــن إذا كانت هى لاتريد إلا فراقــى فلتكن رفيقة بى. فقد رأيت إحــدى الفلاحات تبكى بدموع

ساخنة وهى تسلم حبل بقرتها التى باعتها فى السوق، مع أن هذه الفلاحة كانت ستشترى بقرة أخرى فى نفس اليوم. لكنها... عشرة!!».

ولم يأتنى رد كأنما كان الخطاب بعنوان مقبرة الإمام الشافعى. وركبنى الشك فى أنه ضاع أو أنها تسلمته ومزقته، وانقضى شهر خيل إلى فيه أننى شخصان لا شخص واحد، أعنى أن هناك نسختين من الأستاذ عبده المدرس بمدرسة الفيوم الابتدائية، البالغ من العمر ثلاثين عاما، السمين، ذى الرباط الأسود، والرجل المريض بعرق النساء، الطيب المسالم الذى يحب حتى الذين يكرهونه.

أما النسخة الأولى منى فهى تلك التى تؤدى عملها فى الفيوم، وأما النسخة الأخرى منى فهى فى القاهرة، تمسك بها عطيات لتقلبها فى الأوحال طول النهار، وكل يوم. لذلك وجدتنى فجأة أركب القطار المسافر إلى القاهرة عصر يوم الخميس، ولم أكن أستصحب معى خطة. كل ما كنت أعلمه هو أن الحياة بدونها شىء لا يطاق، ولو مؤقتا.

كنت قويا ضعيفا كما قلت لك، فى قوة المريض الناقة، وفى ضعف مدمن الأفيون. وكنت مصمما على أن ألقاها فأسألها سؤال واحدا، رجوت بينى وبين نفسى أن يكون السؤال الأخير، هو معنى الحياة الهادئة التى تقصدها!!

وكنا فى أخريات الخريف وأوائل الشتاء، وفى سماء القاهرة

غيوم قريبة من الأرض، كأنها عين تتهيأ للبكاء. وتلاحقت أنفاسى حين وقفت على باب حارتهم كأننى جئت ماشيا من الفيوم، وحين دققت باب شـقتهم فتح لى ثلاثـة أطفال، صاح أكبرهم بصوت عال كصوت المبلغ فى صفوف الصلاة: (سـى عبده... سى عبده) ودخل يجرى وإخوته يرددون النشـيد، وتبعته على الفور فلما انحرفت فى الصالة إلى حيث أستطيع أن أرى من الداخل، لم أجد إلا الأولاد والأب جالسـا على الكنبة كما تعود، عليـه معطف قديم، وأمامه مدفأة فيها رماد، وفوق رأسـه قلنسـوة من الكستور المخطط غطت أذنيه من أعلى.

وأحـرج الرجل كأنه مدين مفلس، ورحب بى، وأجلسـنى إلى جانبـه، وخيل إلى أن عينيه اللتين خنقهما الضغط العالى قد نديتا بالدمع. فخفف هذا المنظر المؤسـف من بغضائى، وجعلت أتخيل صورة كبرى لعلك تسخر منها حين تسمعها. تصورت شخصا ذهب ليقتل عـدوه، فلما دخل عليه، ألفاه سـاكنا نائما ملفوفا بلحاف، فلما كشف غطاءه فى رفق ليتأكد منه، ألفاه مخنوقا فى فراشه، لأن عدوا آخر سبقه فأخذ عمره.

وجعلتنـى هذه الصـورة – حين رأيت منظـر الرجل الضعيف المحرج، المدرك لحقيقة الموقف – جعلتنى مضطرب الإحساس، حانقا مشفقا.

وطرق البـاب، فذهب الأطفال الثلاثـة ليفتحوه. وجاءنا صوت

المبلـغ وهو يقـول «ماما يـا بابا...ماما يا بابـا» وإخوته يرددون النشيد.

فقال الرجل: لقد جاءوا معا لأنهم خرجوا معا. وكان طبعا يقصد زوجتى.

وسـلمت حماتى بفتور رأيـت فيه بوادر الحكم. وسـألتها عن عطيات، فقالت: تخلفت فى الطريق...آتية حالا!!

ودخلت تخلع ثيابها، ثم خرجت وقد اكتسـى وجهها سـحنة عسكرية. قالت وهى تجلس على كرسى من الخيزران:

– لعلك أدركت الآن أنك كنت تعاملها بقسـوة. فى بلاد الغربة تهين بنات الناس؟! لقد نفرت قلبها منك يا سـيدى حتى يئسـت أنا من إصلاحه.

– كده؟!

– كده!! منذ غضبها وأنا أحاول إعادة المياه إلى مجاريها، لكن بلا فائدة. فقال الأب وهو يسحب سيجارة من تحت وسادة الكنبة:

– لكن... سيهديها الله بإذن الله. الصبر طيب.

وضيعنا ساعة فى جدال عقيم، وجدتنى فيه ملومة ملامة الحمل الـذى عكر المـاء. وكان الأب ينظر إلى من طـرف خفى ليقول لى بـدون كلام: تحمل... تحمـل... ليس هناك فائـدة فى الكلام!! وكنت أسـكت وأترك حماتى وحدها تكيل لـى الملامة، وتذكرنى بخساسة فعلتى القديمة مع بنتها، لأننى خدعتها من أول خطوة!!

وطــرق الباب، فذهــب الأطفال الثلاثة ليفتحــوا، وصاح صوت المبلغ قائلا: «عطيــات يا ماما... عطيات يا ماما» وإخوته يرددون النشيد، فانهارت أعصابى، وجف ريقى، ودق قلبى. ورفعت أمها صوتها تنادينى باسمى وهى تكلمنى لتفهم القادمة أننى هنا.

كان عليها ثوب غال اشــتريته لها بمناسبة صلح أنهى خصاما، وكان جميلا شــهيا جعلها جميلة شــهية. وحظيــت بتقدم صحى ذكرنــى بامرأة بلغت أوج الأنوثة فى أوج الشــباب. وتعاقبت على وجهها ألوان شــتى، بعد أن وضعت كفها فى كفى فى صمت واجم، ثم جلســت. وكانت مطرقة على الأرض، وخصلتان من الشعر البنى محاذيتــان لخديها كأنهما جناحان. وشبشــب أبيها الملفق جنب حذائها الجديد اللامع.

وحملقت فيها كأننى أفحص طردا بريديا فيه شىء يخشى عليه من الكســر، فى الوقت الذى جاءت فيــه مريم تحمل صينية عليها شاى ساخن، وأخذ كل منا كوبه وجعل يشرب. وكان الوقت عصرا، وشعاع متقطع من أشعة الشمس الضعيفة يدخل إلى الصالة من زجاج الشــباك. ورأيت وجهها مرة أخرى وهى تشرب الشاى فى تسرع، فلسع الشــاى شــفتيها، فندت منها حركة تدل على أنها حرقت. وكنت قد أدركت فى هذه الوهلة أن وجهها محفف جديدا، اليوم، وربما من ســاعات فقــط. وكانت آثار التحفيف قد لســعت وجهها الطــرى فى عــدة مواضع. وألفــت من هذين الشــيئين صورة واحدة

تدل على عطيات... على تلك التى تحرقها كل شـهوة. فهى زوجة غاضبة تعبد طريقا آخر فى تستر، وبسلوك غير شريف.

قلت فى خشونة، بعد فترة صمت ظللت على المجموع:

– هل تريدين يا سيدتى أن تسافرى معى؟

فهزت رأسها غير موافقة، وعيناها إلى حذائها اللامع. قلت:

– لماذا؟!

فنظـرت إلـى أمها لتجيـب عنهـا، وهمت حماتـى بالكلام، فقاطعتها محتدا:

– أريد أن أسمع كلامها من فمها.

وتهتـه الرجـل الأب يقول: إننـى مريـض... لا أتحمل هذه المصائب... تكلمى أنت يا عطيات. فصمتت الأم. فقالت زوجتى:

– حاليا... لا!! قلت:

– يعنى ربما تغيرين رأيك بعد قليل!!

فقالت بلهجة موئسة:

– ربما!!

فنظرت أنا إلى الأم لأسـمع تأييد الحكم، فتركتنى وقامت على حيـن وضع الأب يده على عاتقى وأمرنى بالصبر... فترة جديدة... حتى يغير الله أحوالا بأحوال!!

وقامت عطيات لتخلع ثياب الخروج، فلحقت بأمها ، وسـمعت صوتهما العالى يأتى إلى غير واضح ولا مفهوم، كأنهما اختلفتا على

شيء. ثم... بكاء... عاليا. وشهيقا متقطعا من فم زوجتى...

وكان الأب مطرقا نحو الشبشب يدق كفا بكف، دون أن يحدث صوتا. ومريم تدفع الأطفال بعنف إلى خارج المطبخ وهم يتصايحون. والباب يدق بشدة ولا يفتحه أحد. حتى إذا ما سمعه الأطفال، جرى ثلاثة منهم ليفتحوه، وجاءنا صوت المبلغ يصيح "رشدى أخويا ومراته... رشدى أخويا ومراته" وردد إخوته هذا النشيد!!

ورأيتهما داخلين فى زينة وتبرج، هو مدهون الشعر، وهى تتلوى كأنها ثعبان. فذكرت صاحب الفضل عليه، ذكرت جمال أفندى وأياديه البيضاء على هذه الأسرة، وأحسست فورا بأننى غريب، خصوصا بعد أن سلموا وعبروا إلىالداخل، وجائنى ضجيجهم وهم يهرجون، وضحكات ناعمة تند من زوجة رشدى. وكان الأب الشيخ لا يزال ينظر إلى الأرض العارية ويدق كفا بكف، دون أن يحدث صوتا.فتنهدت واستأذنت فى الخروج، فاستمهلنى حتى ينادى حماتى، لكننى لم أتمهل. وقال لى مجاملا فى خوف وخجل: نم هنا.. إلى أين أنت ذاهب؟ فقلت: شكرا.. شكرا لك يا سيدى..فإنه ليس لى عندكم مكان!! ونزلت!!

***

وعندما وصلت إلى باب الحارة، ألقيت نظرة على بيتهم. حدثتنى نفسى أننى لن أدخله بعد هذا ما حييت.

وصممت على أن أبيت فى الفيوم، أو فى أى مكان خلاف القاهرة، فأدركت قطار المساء بنفس لاهث. وضعت رجلى على السلم وهو يتحرك، فذكرت حادثة الترام، لكن الله سلم.

وعدت للحياة التى كنت أحياها. غير أنى بعد قليل أدخلت عليها شيئا من التعديل الذى بمقتضاه أستطيع أن أنسى عطيات.

كنت ألقى دروسا، وأصحح كراسات، وأدخر نقودا، وأشترى كتبا، وأسهر وأقرأ. ودخلت مصيبتى إلى منطقة الاستسلام فخف فيها عنصر القلق.

ولم يكن هناك ما ينغصنى جدا إلا تزايد وزنى!!

وفى إحدى الليالى أحسست أن رجلى تؤلمنى، فسرحت أفكارى التى حركها الألم حتى تذكرت يوم الحادثة، والأسرة العجيبة التى صاهرتها، وعطيات يوم دخلت على فى المستشفى والتقى بصرها ببصر جمال، وقبلاته للطفلة، والعيون التى تتكلم...

وهبط على خاطر أعجبنى أول الأمر، وكدت أهم بتنفيذه، لكنه فتر فى نفسى شيئا فشيئا حتى برد تماما، هو أن أكتب لجمال أفندى رسالة أقول فيها «تنح عن طريقى أيها الرجل، فقد كانت الكأس فى يدك فتخليت عنها بمحض اختيارك». كدت أكتب هذا إليه، لكننى تخيلته يقرأ ويسخر، فعدلت.

وعاودنى الكابوس القديم ذات ليلة، فصرخت وأنا وحدى فى الشقة. رأيت رجلا ينام فى فراشى منبطحا على بطنه، ووجهه

غير ظاهر. ثم تبينت حين فحصته أنه جمال أفندى، وأنه فى أحد جلابيبى!!

واستيقظت وأنا ألهث، وأطللت على السطوح فى ظلمة الليل، وكان الجو باردا، والسماء تدمع قليلا. وحبات المطر تطقطق على الصفيح المرمى على السقف. والفانوس المعلق على الناصية يتلقى المطر فى صمت وبشعلة مخنوقة. والناس نائمون!!

وقررت حين شممت الهواء الذى برد صدرى أننى رجل لا يعيش. بل رجل يجرى باستمرار، ويلهث باستمرار، لكنه بمحض إرادته. فداخلتنى قوة شديدة، قوة الذى يتلقى لطمات متوالية حتى تنبع الحمية من باطنه، كما تنبع النار من حك عودين أو صك حجرين.

وكانت إجازة نصف السنة على الأبواب، فقررت أن أسافر إلى القاهرة لإنقاذ الأستاذ عبده المدرس بمدرسة الفيوم، من اليد التى تمرغه فى الأوحال طول النهار، وكل يوم!!

وكان الوقت عصرا حين دخلت المدينة. والجو دفيئا ينبئ بأن الناس لا يترددون فى السهر. وقصدت فورا إلى المركز الرئيسى الذى قد يمكننى من أن أرى أحدا... إلى قهوة الكوكب. وجلست رابضا كأننى نمر، ثم سألت خادم القهوة حين رآنى: هل يجىء بعضهم إلى هنا؟ فقال فى ابتسامة وتودد: هنا المركز الرئيسى يا عبده بك. كل من نزل القاهرة من إخوانك ورد علينا!! فسألته: جمال أفندى؟

فقال: أحيانا!! فطلبت شيشة وجلست أكركر!!

ولم تنقض لحظات حتى رأيت شبح حمودة داخلا من الباب، وبدا لى كأنه كابى اللون، طويل، ناحل. وسلم فى خشوع وعدم مرح، فجعلنى هذا أتأمله جيدا، فإذا به يلبس رباط عنق أسود:

– خير يا حمودة؟!

– ماتت يا عبده!!

– من هى يا أخى؟!

– زوجتى!!

وفاضت عيناه بالدموع، وفاضت عيناى بالدموع!! وكان كل منا يبكى معنى غير الذى يبكيه صاحبه. وأدرت وجهى، وصفقت وطلبت له قهوة، وقدمت إليه سيجارة، فأخذ يدخن ويشرب ويقص:

– خمسة أولاد تركتهم هذه الوفية. الذى يؤلمنى هو طفل ابن عامين يسأل دائما عنها، وقد فتش عنها مرة تحت السرير...

تصور. تصور أننى أتمنى الآن لو أنها كانت خائنة!!

– كيف؟!

– حين تصيبنا محنة فى إحدى مراحل حياتنا، نتمنى لو أنها وقعت لنا فى مرحلة سابقة...

– تمام. كنت أتمنى أن لو كانت أمى ماتت وأنا رضيع. وكان ذلك فى الفترة التى هددنى فيها الموت، وجزعت مقدما من فقدها!!

– ليرحمها الله!! وهكذا أنا، أتمنى لو أنها كانت خائنة. إن

الوفية تمتعنا بحياتها وتشقينا بوفاتها!!

– والخائنة بالعكس.

– بالعكس صحيح!!

وهز رأسه وشرد فى الأفق، فكدت أقول له: ألا خيبة الله عليك!!.. لماذا صرت هكذا؟!

وخفف مصابة من مصابى، ونحن أحيانا نتداوى بمصائب الناس!!

قلت له بغتة وهو صامت:

– حمودة!! فنظر إلى، فاستطردت:

– لماذا لا تسألنى عن حالى؟! فابتسم فى يأس ثم قال: قل.

– قبل كل شىء أريد أن أخبرك أن الزميل القديم المدعو جمال أفندى رجم بيتى بالحجارة طول هذه السنوات. وأن حياتى قد فسدت بفضل تدبيره، وأننى صممت على أن أقطع الحبل الذى يربطنى بعطيات.

– اسمع يا عبده. الصراحة مرة يا حبيبى، وأنا أخشى أن أؤلمك.

– لا تخف، فقد تغيرت!!

– حسن. اسمع إذن. أنت الذى قد وضعت نفسك فى هذا الوضع، دعك من الماضى البعيد، ومن الطريقة التى تزوجت بها أنت، لكن... لقد ظللت تحقن بالكافور قلبا متوقفا عن الحركة طول هذه المدة. كان يجب أن تفهم من بدرى!!

فاصفر وجهى، وطلبت قهوة. ثم قلت:

– أكمل!!

– جمـال أفندى رجل تعجبه ملابس الآخرين، ممثل، نصاب، جميـل، كذاب. لـه فى كل حى علاقة كالبحارالـذى يترك فى كل ميناء صديقة... ويسافر!!

– وكان يطارد زوجتى.

– لا تستطيع أن تجزم...

ونظـر إلى وهو يقول هذا، حتى كـدت أفهم أنه يريد العكس، ومط شفته واستطرد:

– أنت رجل طيب، مسـالم، نعلم كلنا أنك لا تسـتطيع أن تكره أحـدا. حتى لو حاولـت. لذلك كنت جديرا بالتـى تفهمك، لأنك كالبقرة التى تحلب فى هدوء!!

فهـززت رأسـى ولم أرد. وظللنـا صمت لم نعد نسـمع فيه إلا خرخشـة حبات النرد فى الصناديق الخشـبية، ووقع مستطيلات الدومينا على الرخام، وأحاديـث متهالكة لرجلين يبدو أنهما فى المعاش. ثم قلت:

– سأتخلص.

– أنت حر!! هذا شأنك!!

– لكن...

– ماذا؟!

– جمال أفندى هذا... ألا يخاف من الله؟!

فضحك وهو حزين، وبدت أسنانه الصدئة مثل أيام زمان، ومط عنقه إلى وقال لأول مرة: ألا خيبة الله عليك يا أستاذ... (اتنجر)!!

* * *

كانت الحماسة لا تزال تتدفق، من باطنى، لأن اللطمات شديدة. وبعد أن فارقت حمودة، وجدت نفسى مدفوعا فى طريق معروف حتى وقفت أمام بيت فى حارة نظيفة، ورفعت رأسى أتطلع إلى أعلى نحو النوافذ المضيئة. وفى هذه اللحظة رأيت رجلا يخرج من الباب، فسألته فى تلعثم: فى أى دور يسكن جمال أفندى من فضلك؟

فأجاب وهو ينحرف إلى اليسار فى عجلة: آخر دور... آه، نعم، آخر دور، وهذا هو آخر دور!!

وفى آخر دور وجدت شقة وحيدة على السلم، فطرقت الباب برفق، وانتظرت فتناهت إلى سمعى ضحكات كان فى بعضها نعومة. ولم يفتح أحد.

دققت ثانية بقوة، فإذا الباب ينفرج عن وجه جمال أفندى، وإذا بوجهه يتقلص فى عجب وخوف. ولكنه استرد أعصابه سريعا وفتح بقوة وهو يقول: الأستاذ عبده؟!... غريبه... يا سلام!! تفضل...

وقادنى إلى حجرة فى صدر المكان فيها كراسى من القش،

بعضها مخرق وبعضها سـليم. والتراب على البلاط. والنوافذ مقفلة فـى فوضى. وكان كل شـىء فى ينبض حتى أهـداب عينى. وخيل إلى أن جمال حين تركنى وخرج كان ليهيئ نفسـه لخوض معركة. وسمعت همسـات وخطوات نسائية تعبر الصالة، وكان جمال ذكيا كعهدى به، لأنه اسـتوقف من كانت عنده أمام بصرى فى الصالة، وكلمها، وسـلم عليها ليتيح لى فرصة أن أراها. وأقفل الباب وعاد، وجر كرسيا وجلس ملاصقا لى، ووضع يده على عاتقى كما فعل ليلة هنأنى بالزواج، وسألنى عن الحال:

– كيف الحال يا عبده؟!

– زفت!!

فحدق فى بعينيه القويتين.

– لماذا؟! هل أنـت غير مرتاح فى الفيوم؟... أتحب أن تنتقل إلى القاهـرة فى الحركة القادمة... لكـن... الفيوم جميلة وكثيرة الخيرات... يخيل لى أن صحتك تقدمت بسبب إقامتك فيها...

وربت على وقال: سمنت!! وضحك.

قلت له بعد أن بلعت ريقى:

– جئت إليك من أجل شىء أهم من النقل.

فغاب لونه، ولكنه قال متجلدا متكلفا المزاح:

– احذر طلبا واحدا... احذر فقط أن تطلب فلوسا. وضحك.

فعـدت أبلع ريقـى, ودق بابه، فقام يفتـح، وإذا برجل وامرأة

يدخلان، فقام وسلم وأشار إلى حجرة أخرى، وعاد وعلى وجهه دلائل من يريد أن ينهى موقفا. قلت له كمن وثب فجأة إلى الماء الذى يخافه:

– أنت يا جمال أفسدت على حياتى الزوجية!!

فلم يرد، فغلى غضبى. وصرت أقذف فى وجهه بالكلمات، وبصوت عال، أجبره على أن يرد باب الحجرة التى كنا فيها، قلت:

– أنت رجل لا يعجبك إلا ملابس الآخرين، ممثل، نصاب، لك فى كل حى علاقة كالبحار الذى يترك فى كل ميناء صديقة.. ويسافر!!

وهذه الكلمات حفظتها من حمودة كما تعلم. ولما نفذت ذخيرتى توقفت قليلا حتى ألهم شيئا. وظل جمال ينظر إلى بعينين ثابتتين وفم مبتسم، يريد أن يثبت به براءة نفسه.

وظل صمت قام خلاله وقدم إلى فنجالا من الشاى لا أدرى من صنعه لنا. فلم أمد إليه يدى. لكن ثورة غضبى كانت قد فترت نوعا، فأسفت عليها كمن فر من بين كفيه صيد. وأخذ جمال يقلب السكر بملعقة صغيرة كانت تحدث صوتا مزعجا فى سمعى، كأنه ضجيج آلة. وأحسست برغبة فى البكاء، فهممت أن أنصرف، لكنه أجلسنى بأن ضغط على كتفى بكفيه القويتين. وقال: أنت فى بيتى. يجب أن أتحملك، حتى لو لم تكن صاحب حق.

وقدم الشاى برفق ساحر، فامتدت إليه يدى. وجرعت منه جرعة، فتذكرت أشياء أهمها أن هذا الزميل لا بد أن يرثى لحالى لو أننى وصفته له. وأنه سيخلى طريقى ويدعنى أمشى فى سلام.

وبانكسار ومذلة نظرت إليه، وهممت أن أقول شيئا. لكننى ثرت حين تذكرت أننى جئت إلى القاهرة لأنقذ سمعتى من يد امرأة. وثرت على عطيات حين أحسست أنها ستكون سببا فى مذلتى لرجل أحبته!! وعدت فثرت على نفسى التى تحاول من جديد أن تحقن بالكافور قلبا متوقفا عن الحركة، فوضعت الفنجال بعنف، ولممت نفسى قائلا فى تصميم:

– السلام عليكم. أشكرك ولا تؤخذنى، وانس كل ما قلته لك إن كنت رجلا كريما. وهززت كفى فى وجهه، ورأسى كأننى أهدد، فجرى ورائى حتى أدركنى على السلم ووقف يهمس فى الظلام:

– اسمع يا عبده: الماضى البعيد جدا كلنا مسئولون عنه، حتى أنت! أفاهم أنت؟ أما القريب فأنا أؤكد لك.....

ولم تعد بى طاقة أن أقف أو أسمع، بعد أن حملنى نصيبى من المسئولية. آلمنى هذا الحق، آلمنى جدا بعد أن سمعته فى فهم خصمى، ولم يعد يعنينى من قوله شىء بعد أن طفحت كأسى. فتركته فى الظلام وهبطت أتعثر حتى وصلت إلى الشارع فتريثت لأعرف أين مكانى الآن من القاهرة؟! كأننى ضللت الطريق!!

* * *

(١٨)

قضيــت اليوم التالى نائما كأننى مريــض. ولم أفارق اللوكاندة، ولم آكل إلا لقمة الصباح. وكأننى كنت خائفا أن أنزل الشارع فأقضى فى أمر عطيات بقضائى الأخير. على أننى كنت عازما على أن أقطع الحبــل. وعلى الرغم من تصميمى، فإننى كنت مترددا بين أمرين: أأذهب إليها وأقطعه فى وجهها وفى بيتهم وعلى مسمع من أهلها، أم أفعل ذلك وأنا بعيد عنهم؟!

ولم أصل إلى نتيجة حتى مال ميزان النهار، واستردت الشمس بقايا الأشعة التى كانت فى غرفتى، وأمسى المساء، فلبست ثيابى وخرجت هائما على وجهى فى الطرقات، إلى حيث لا أعلم.

وجدت نفســى فجأة فى الحارة التى كنت فيها أمس، أمام بيت جمال أفنــدى، وكان الجو بــاردا والنوافذ كلهــا مقفلة، ومصاص القصب ينتشــر فــى كل ركن. وقطة ســوداء لائــذة بالجدار جنب المدخل، فوقفت بجوارها.

ولأول مــرة فى حياتــى بدا لى أننى شــرير. تصورت أن جمال أفندى داخل أو خــارج، وكأننى فاجأته بطعنة من المدية التى فى جيبى وتركتها فى ظهره ثم فررت. ثم نفيت عن قلبى هذا الخاطر، كما كنت قديما أنفى الخواطر الســود التى تتعلق بعطيات. وفكرت

فى أن أصعد إليه لأسـأله عن حادث واحد، قائلا له: ألسـت أنت الرجل الذى كان ماشـيا مع عطيات يوم قابلـك زميلنا فلان (الذى قابلنى على القهوة فى ميدان السيدة) وسلم عليك يومئذ؟ أليست هى المرأة ذات العيون الخضر والشعر البنى التى كانت فى صحبتك؟!

وصعدت السـلم بهدوء كأننى أتلصـص، وكان خفقان قلبى أعلى من وضع أقدامى على الحجر، فرأيت الشـقة غارقة فى الظلام. لكن خيل إلى أننى أسـمع بداخلها همسـات... همسات كأنها مناغاة، وأحيانا رشـفات كأنها قبلات... وأحيانا غطيطا كأنه شخير نائم. ثم سـاد السكون فترة طويلة ثاب فيها إلى رشدى، فشددت شعرى لأننى خشـيت أن أجن. وسمعت وقع خطوات سـريعة صاعدة إلى أعلـى، فأيقنت أنها خطوات جمـال، وركبنى ارتباك، فماذا أقول له؟! لكنها توقفت عند الشـقة التى تحتى وطـرق صاحبها الباب ودخل، وسـمعت المصراع يقفل، فهبطت السـلم ودوار هائل يلف بى. حتـى إذا وصلت إلى الباب الخارجى، سـمعت القطة اللائذة بالجدار تموء فى سكون الليل كأنها تسأل عما صنعت؟!

وفى الصباح التالى ذهبت إلـى مكتب المأذون، وقضيت الأمر. وتنفست الصعداء حين هوت سكين الفراق على هذا الحبل الذى رث وتلوث وانقطع ولفق فى مواضع كثيرة. لكن تنفسـى كان مثل تنفس من بترت له يد، أو قطعت له ساق!!

وسافرت إلى الفيوم من فورى، كأننى ارتكبت جريمة فى القاهرة.

ولما دخلت المسكن أحسست أن الجرح يؤلمنى. واستعبدنى خاطر جبار، هــو أن عطيات إن كانت ظلمتنى طول عشــرتنا المنقضية، فقــد ظلمتها أنا فى اللحظات الأخيــرة. كان ينبغى أن أذهب إليها قبل أن أقــدم على ما فعلت، فمن الجائز أن تكون قد غيرت رأيها. وعدت فاعترضت على نفســى، لكــن أليس هذا هو ما كنت أتطلبه؟ ألم أكن أرجو أن أدفعها عنى بكل قوتى فى اللحظة التى يثبت فيها تمسكها بى؟! غير أن كل شىء فى المسكن كان يحاربنى. وأبكتنى الذكريــات الحلوة والذكريــات المرة على الســواء، ورأيت المهد الصغير الذى كان مهيأ للطفلــة التى ماتت منزويا فى أحد الأركان لحد خرب فخيل إلى أن قنبلة قد سقطت على عشى فنسفته؟!

ووقع بصرى علــى الصورة المزدوجة ذات الإطار المذهب، تلك التى كانت يد عطيات قد قلبتها قبل سفرها – فذهبت إليها وقلبتها من جديد. وأخذت وأنا أنظر إليها أجمع شــتات الحوادث المثيرة والأفعال الكريهة التى وقعت منها، لأســاعد القلب على أن يلفظها نهائيا، فأستريح!!

وكنــت أريد أن أغير المــكان لكننى انتظرت حتــى يحضر بعض أهلها فيأخــذ حاجاتها. وفرح بــى الناظر، واحتضننــى وقبلنى فى جبينى، مطريا شــجاعتى، وفرط إقدامى، وثورتى على الذل. ولو أنه دخل إلى صميم قلبى، لعلم أن كثيرا من الناس يودون أن يكرهوا ولكنهم لا يفلحون، وكثيرا منهم يودون أن يحبوا ولكنهم لا يستطيعون.

وكانت آخر نظرة ألقيتها على أمها الشريرة وابنها رشدى، حين كانا يهبطا السلم بعد أن أخذا الأثاث. وكانا يعملان فى صمت كأنهما يخيطان كفنا، وأنا جالس فى الصالة على كرسى لا يكاد يحملنى ألقى إليهم بنظرات لا معنى لها. ولم يثر بينى وبينهم خلاف، لأنى تركتهم يأخذون ما يشاءون.

ثم عدت إلى الحجرة التى كنت فيها فى اللوكاندة القريبة، حيث أنظر على سطح الورشة، وأرى من النافذة شعلة الفانوس تبصبص عند ناصية الحارة.

ودخل مصابى فى منطقة التسليم مرة أخرى، فلم يعد يشوبه قلق كثير. وذكرت الطفلة (جمالات) الصغيرة التى لم تعجبها الرحلة، فتخلفت عنها. ذكرتها فوددت لو أننى قبلت فمها الذى كان لا يكاد يسع حلمة الثدى، لأنها خدمتنى بموتها فأراحتنى من المتاعب. ولنفرض أنها خدمت عطيات أيضا، لكن ذلك لا يعكر على لذة الراحة.

واستغرقنى عملى أيما استغراق، ووجدت نفسى مريضا بمرض جديد، هو ادخار المال. الادخار الدائم وبشكل كان يطغى على ضروراتى. فكنت ترانى رجلا بدينًا غير مهذب الملابس. بنطلونه مفتوح، وسترته لا تكاد تلتقى أزرارها على كرشه المدور والذقن غير محلوق فى كثير من الأوقات، ورباط العنق أسود لامع كأنه جلد، وعصا غليظة فى يدى أتوكأ عليها كلما وجعتنى رجلى.

وكان يخيل إلى فى كثير من الليالى أنها آلت إلى أحضان الرجل الذى أحبته، وأعلنت فورا افتتاح الطريق الذى عبدته، وأن أباها الضعيف المهزوم سلم بالأمر الواقع، وأن أمها هزت كتفها غير مبالية: (كلهم رجال). وأما رشدى فقد فرح بصهره الجديد. وأما المجتمع فإنه لا ذاكرة له: يعيش فى الحاضر، ويقسم الماضى إلى قسمين، ينسى أحدهما ويزيف الآخر ثم يسميه: "التاريخ"!!

وفى ليال أخرى كنت أحس بشىء يقرب أن يكون حنينا، فأعود فأسأل: هلا أزال أحبها؟! فلا يأتينى جواب مريح، لأنه ليس بين الحب والكره حدود واضحة، ولا خطوط بارزة... قديما – أيام كانت بين أحضانى – كان الهزيع الأول من الليل يشهد ما يفعله الكارهون، ثم لا يلبث الهزيع الأخير من الليل أن يشهد ما يفعله المحبون!!

ولم أعد أسمع عن القاهرة شيئا فى الأشهر الأخيرة. حتى إذا ما دخل الصيف، وأقفلت المدارس أبوابها، وبدأ الغبار يكسو النوافذ والأدراج، وجدت فى نفسى ميلا للسفر.

ووقف بى القطار فى محطة العاصمة، فأحسست بمعالمها تناديني. كنت أكرهها، وكنت أحب أن أراها. لكننى لم أسمع إلى صوتها، وواصلت سفرى نحو الشمال. نحو القرية!!

وفى الحجرة التى كنت أجتمع فيها أنا وأسرة فرق الدهر بين أفرادها بأساليب مختلفة، قضيت إجازة الصيف أو معظمها.

وكانــت ذكريات هادئة غير شــريرة تقضى معى شــطرا من النهار وجــزءا من الليل، ,وكثيرا مــا كنت أنظر من النافــذة المطلة على الأرض المملحة، فأستعيد بعض ما فات!!

وفى الخريــف التالى جربت طعم الوفــاء، وذرفت دمعة حب لذيــذة، لأن حركة التنقلات التى ظهرت زحزحتنى من الفيوم إلى مدرســة من مــدارس البنات فى الوجه البحــرى، وفى مدينة غير صغيرة اسمها كفر الزيات فأدركت أن المقادير تجرح بيد، وتضمد باليد الأخرى. لأن البعد عن مسرح الحادثة من أولى دعائم النسيان.

ولســت أنسى وداع الناظر ولا شهيقة بالبكاء. وقد أثر فى نفسى جلاله الباكى، كأنه جلال علم منكس!!

وألقيت نظــرة أخيرة من نافذة غرفتى على الحارة، والفانوس، وورشة النجارة، والســطوح، وعلب الصفيح، وقطع الزجاج وهناك علــى بعد أمتار كانت الشــقة التى ســكناها. لعل فيها الآن ناســا سعداء، نهارهم جد، ومساؤهم نجوى، وليلهم أحلام!!

ثــم رحلت...ورأيت مبنــى المحطة من خــلال دموعى يتباعد يتراجع بالسرعة التى يمشى بها الماضى...كذلك. فلما لم يبقى منه إلا الأثر البادى على الأفق، رأيت كأن رجلا ينفض كفيه وملابسه، ويمسح وجهه وشعره...بعد أن وارى ميتا. فدعوت له بالرحمة!!

* * *

وأثرت بعد أن نزلت المدينة الجديدة أن أرمى حياتى.

كانت جدران متداعية، فسندتها بالخشب.

أول شـــىء عملته هو أننى أجرت مســكنا تحريت فيه أن يكون جميلا على قدر ما أســتطيع.ثم اشــتريت له أثاثــا جديدا، بعد ما تخلصــت مــن القديم، وأنا فــى الفيوم، فبعت ما يســتحق البيع، ووهبت ما لا يســتحق لامــرأة خدمتنى، وبكت علــى عثراتى فى صمت...هى زكية زوجة الفراش.

كانت نوافذه قبلية ترى محطة ســكة الحديد على قرب. وترى على بعد فضاء وحقولا، وعلى خط الأفق تماما ترى سطرا من الشجر كأنه الحد الفاصل بين المعلوم والمجهول.

وأعجبتنــى المدينة، خصوصا فى المنطقــة الواقعة على النيل. وخيل إلى أنى سألقى بهمومى ذات ليلة فى الماء، وأنا واقف هناك على الكوبرى ذى الدعائم الحديدية الضخمة.

أمــا المدرســة، فقد ذكرتنــى ببدء قصتى فى مــدارس النصر، حين أخذ القضاء ينسـج شـريط علاقتى بعطيات، لكن حداثة سن التلميذات، وارتفاع المســتوى الخلقى بين المدرسين والمدرسات، والجد الصارم الذى كانت تتســم بــه الناظرة – جعل الأمور تجرى فى جدول هادئ.ولم تعد العلاقات بين الجنســين فى المدرســة أن تكون صداقة مشبعة بالاتزان.

ولــم يتخل عنى حظى فى الناحية الاجتماعية، فقد صفا لى كما

صفا فى الفيوم. وفورا نلت احترام الناظرة وشهدت باجتهادى وإخلاصى. وكنت مخلصا حقا. كان فى روحى طاقة من الحرارة يجب أن تشع ،ففتحت لها منافذ من العمل. ومن هذه المنافذ دخلت إلى ثقة الناس. ومنها أيضا دخل إلى المال. وزاد إيرادى، ولم يكن لى نفقات، بل كنت على العكس أميل إلى التقتير. كنت أحس كأن شبحا يتهددنى فى حياتى لعله ظلام لما مضى من عطيات التى لم تدعنى أستقر يوما فادخرت بجنون.

وبدأت أعبر الثلاثين. وبدأ شيب باكر يضيء ظلمة شعرى. وخيل إلى أننى أحيا بلا هدف، خصوصا بعد أن أخذ الطنين الذى ملأ أذنى من وقع الحوادث يخف كلما مرت الأيام.

غير أن إحساسا داخليا صرفا كان يخامرنى، أوحى إلى بأن قصتى لم تنته بعد. فابتسمت ساخرا شاكا. ثم عدت فناقشته فى هدوء فى الهزيع الأخير من الليل، فى ليلة صيف، وأنا جالس إلى النافذة، ومبنى المحطة واقع أمام بصرى، بينى وبينه الشارع المتآكل الأسفلت، والسور الحديدى المرتفع، وعدة أكشاك.

وكان مصباح كبير معلقا على سارية، يلقى ضوءه على القضبان فتلمع، وقاطرة فى طريقها إلى المخزن تزفر فى رفق، والرصيف مقفر ليس عليه مسافرون، والفضاء البعيد مظلم ليس فيه إلا النجوم. سألت نفسى: لماذا يوحى إلى أن قصتى لم تنته؟! هل بقى من قصة عطيات فصل أخير، أم أن قصة امرأة أخرى ستبتدئ.

ونظرت إلى نجم يتلمظ وقلت فى نفسى: "شبعنا من النساء"! لكن وجها أسمر مخسوفا، وعودا ضئيلا نحيفا، وعينين واسعتين، وفما يبتسم فى تودد ومسالمة، فرض نفسه على كل هذه المناظر، فاستبعدت أن يكون ذلك صحيحا.

وفى إجازة نصف السنة التالى، أى بعد انقضاء عام كامل على الحبل المقطوع بينى وبين عطيات، سافرت إلى القاهرة.

ومررت على قهوة الكوكب بدون إرادة، كانت هناك يد قوية تدفعنى، وهناك أيضا يد قوية تمنعنى، لكن رغبتى كانت مع التى تدفع، وجلست، وجاء وجه جديد لخادم لا يعرفنى، فلم أسأله عن أحد. كان الزمن بصدد سحب ذيوله على حوادثنا. وفجأة لاح شبح حمودة، طويلا نحيفا أنيقا مرحا، ولم يكن فى عنقه الرباط الأسود، فأدركت أن القضاء آسى جروحه، وأنه برئ من مصابه بسرعة، شأن النفوس المرحة المتفائلة التى تمسح دمعتها ثم ترسل ضحكتها، وقال لى كالذى فوجئ:

– أوه... أهذا أنت؟! ألا خيبة الله عليك... لا تزال حيا ترزق؟!

وعانقنى، وقبلنى، وأطرى حسن حظى إذ نقلت إلى كفر الزيات. قلت له:

– كيف حالك أنت يا حمودة؟

– الحمد لله... تزوجنا.

– يخرب بيتك!!

– لا والله. بالعكس. كان سقفه سيخر علينا من فوقنا، فرفعناه على عمود. ها.ها.ها.

– عمود؟!

– عمود من الرخام الناعم الأبيض. على امرأة!!

– شجاع.

– ماذا أعمل ياعبده؟ خمسة أولاد!!

– بل هذه هى المشكلة.

– قد تكون قصة غيرك هى الفصل الأول من قصتك وأنت لا تشعر.

(فخفق قلبى، وذكرت كل شىء) وشرب ماء واستطرد:

– حين مات عديلى ولم يترك إلا زوجته...

ففهمت كل شىء. فهمت أن الخالة أصبحت زوجة أب. زواج سياسى. من أجل الأولاد. وأن حمودة سعيد بها. هناك ناس يدورون مع الكواكب السعيدة، وناس آخرون يعلق كوكب النحس بين عينيهم... ارحمنا يارب!!

واستطرد حمودة يحكى، ويحكى، ويضحك، ويشرب، ويدخن حتى انتهى من الكلام فوضع رجلا على رجل، فبدت ساقاه طويلتين جدا، وسألنى عن حالى. قلت:

– لاجديد.

– ولا قديم؟!

– القديم أنــت أدرى الناس به. فمال يهمس وعلامات الارتياح بادية على وجهه الطيب:

– جمال أفندى. أبحر!! ها. ها. ها.

– أبحر!!

– إلى الإســكندرية مرة أخرى، ألغى ندبه، ويظهر أن هذا كان برغبته... علاقات قديمة يريد أن يفر منها يا افندم. وكان آخر دور مثله قبل سفره فى مسرحية أقامتها فرقة من الهواة، هو المنافق، والله العظيم أنا لا أكذب!! ثم ســكت ونظر بخبث، ولم يتكلم كأنه ينتظر منى سؤالا. فلم أسأل، وجعلت أدق برجلى على بلاط القهوة، وأستمع إلى أغنية ذائبة من الراديو كانت تصف الحب...الحب... الحب!! ورجلى تتابع النغمات.

لكنى لم أصبر كثيرا، فسألت:

– والأب ؟!

فقال برفق:

– يرحمه الله!!

فخفــق قلبى من أجله، وخيــل إلى أننى أرى جثة رجل رجموه بالحجــارة حتى مات، ثم تركوه فى أرض فضاء، والطوب منتشــر حوله، وعلى وجهه جروح، وعلى جبينه تقطيب من لعنة الحياة!!

ثم تنهدت، ثم نظرت إلى حمودة فرأيته يتابع ببصره من خلال الزجاج شــابا يعاكس فتاة على محطة الترام القريبة، يتابعها وهو

يضحك وينفخ الدخان فى الهواء. فقلت له: أنت لا تتغير. فأجاب:

– أنا؟!... بل الدنيا!!

فسألته:

– وما أخبارها؟!

– أخبار من؟ الدنيا؟

فأجبت بكسوف:

– أنت تعرف التى أعنيها!!

فقال بجد ووقار:

– زفت!! قطران!! ومط عنقه الطويل وشفته المتشققة، ثم استطرد:

– كل ما علمناه أنها لم توفق معه، وأن هذا أحدث لها صدمة. ثم مات أبوها. ثم رحل الرجل الثانى إلى الإسكندرية، وتشتت البيت...تشتت، وانتقلت البقية من الأسرة إلى مسكن صغير فى حى لا أعرفه.

وعلمنا مقدما بالنهايات المؤسفة لا يعفينا من الأسى عندما تحين هذه النهاية. ونبض فى عرق كريم. لم ينبض بالحزن على هذه الأسرة التى ربطت الأيام بينى وبينها لعدة سنوات. حتى خيل إلى أننى لو كنت قادرا على أن أحمل سفينتهم التى تحطمت فيها كل أدوات العوم، لحملتها على ظهرى، وخضت بها حتى ألقيتها على الشط. ثم تركتها للقدر.

وبت فى القاهرة ليالى أخرى. ولم أنسى قبل سفرى إلى كفر الزيات أن أعود الأماكن التى شهدت أحداث شبابى.

درت حول مدارس النصر المقفلة الأبواب، فخيل إلى أنها تتدفق بالتلاميذ والتلميذات، وإن عطيات خارجة تحمل حقيبة من الجلد، وتقطقط كأنها ذكر الوز.

ثم ذهبت إلى الحارة التى شهدت مأساتنا، فإذا البيت قائم كما هو، مطل على الفضاء ذى الشجر، وإذا بالثغرة التى كان العشاق يدخلون منها ليلا قد اتسعت حتى أصبحت بابا. وإذا بأطفال يطلون من نوافذ شقتى القديمة يطير أحدهم بلونا ويلعب الآخر بطيارة من الورق.

ونظرت إلى الحوش ثم ابتسمت. كانت الدرجة المكسورة لا تزال مكسورة، ولعل أناسا غيرنا قد عثروا فيها. ونحن نعرف موضع العثرة ومع ذلك تصيبنا العثرات.

وأكملت الدائرة، فذهبت إلى بيتهم القديم، حيث كان هناك رجل ضعيف وامرأة قاسية، تلسع كطرف الكرباج، خلفوا ناسا، ثم فرقتهم يد الزمن.

وعند خروجى من القاهرة ضحا اليوم التالى، أحسست أننى مرتاح، وأن فى قدرتى أن أفعل شيئا. لكننى لم أكن متجها إلى شىء معين وإن لاح لى من خلال الغيوم الوجه الذى حدثتك عنه، الأسمر المخسوف ذو العينين الواسعتين، والفم الذى يبتسم فى تودد ومسالمة.

ذلــك هو وجه الآنســة روحية. المدرســة معى فى مدرســة كفر الزيــات للبنات. التى لــم تبادلنى غراما، وإنمــا نبهتنى برفق إلى هفوات أحسســت بعدهــا بالراحة، قالت لى علــى انفراد ذات يوم: احلق ذقنك يا أستاذ عبده، لتبدو أكثر جمالا!! وقالت لى على انفراد ذات يــوم: لا تتوكأ على العصا، فأنت فى عز الشــباب!! فلما لويت شفتى إنكارا لما قالت، أكدت لى بعينين صادقتين أن الدنيا بخير!!

ووقفت أفــكارى عندما وصلت إلى المدينة التى أقصدها،ورأيت على بعد قريب، مبنى البيت الذى أسكنه وأنا منحدر إلى الشارع.

وأحسســت بالجوع. وخيل لى – وكان الوقــت عصرا – أننى لم أجــع هكذا طول حياتى. جعت بشــهية، وأكلت بشــهية فى أحد المطاعم الفاخرة. ثم رجعت إلى البيت فنمت بشــهية. ولم أستيقظ إلا والظلام مخيم على الشــقة، بصوت أحد القطارات العابرة يقلقل مصاريــع النوافذ، فأشــعلت النور. وأخذت أجول خلال المســكن كأننى أبحث عن شــىء . فوجدت فاكهة فــى المطبخ، فوقفت آكل حتــى امتلأ بطنى. ثم أخــذت أفتش عن لا شــىء، فوجدتنى أقرأ عناوين الكتب التى أقتنيها.

ومن بين هذه الكتب سحبت يدى قصة...

كان وجهــى إلى مبنى المحطة، وســارية المصباح الكبير تبدو من خلال الزجاج المقفل، والأفق البعيد مظلم، والســماء لا قمر ولا نجوم، إلا سحاب شتاء جهام أبيض، لا يمطر ولا يجلو.

وأخذت أقرأ «أنا كارنينا» مرة أخرى. وكأننى أقرأ قصة عطيات. وعلى كثير من صفحاتها رأيت كثيرا من الآثار التى عاشرتنى أكثر من أربعة أعوام. رأيت بقعا من القهوة، ورأيت تذكرة ترام، وهناك بقعة حمراء لعلها أحمر شفاه، وزهرة فى منتصف القصة يابسة صغيرة كأنها من أزهار الخردل، ونقطة حبر عند نهاية فصل، وعلامات كأنها آثار الأقدام على الطريق المترب!!

وكان قطار يصفر، وقروية تصرخ لأنها تعثرت فى أذيالها الطويلة، فلم تركب، فتركها ومر. وريح عابرة تحرك المصباح على السارية. وعامل (البلوك) يشاتم زميلا له. وشجرة صغيرة تئز جنب الرصيف. كل هذا وأنا أقرأ كلمات النهاية التى تعجلتها فى قصة (أنا كارنينا) تلك أسلمت لقطار سكة الحديد عنقها الفاتن.

وحين فرغ (تولستوى) من فرض الجزاء على الظالمة، كنت أنا منتصبا وراء الزجاج، أنظر إلى المحطة، وإلى قطار جديد يدخل. وتخيلت أن الحادثة ستخرج فورا من بين صفحات الكتاب، فتتجسم على كفر الزيات، وأن (أنا كارنينا) ستظهر من وراء الكشك فى عز وترف وتردد وفتنة، لتقابل قطار البضاعة. لكن شيئا ناعما كأنه ثعبان لمس ساقى من أسفل فارتجفت، ونظرت إلى الأرض فوجدت القطة تتمسح بأثوابى.

لم آكل شيئا، ولم أشرب شيئا بل دخلت إلى الفراش من فورى، وأطفأت النور ونفسى لا تزال بكامل شحنتها.

وعادت الحلقات من جديد تعرض نفسها أمام خاطرى: أم على وجهها تقلص من الدواء المر وتغرى ابنها بالزواج... وفتاة ذات شعر بنى وعيون خضر، ودرجة سلم مكسورة عثرت بها فى الظلام. وحياة مشوبة غير خالصة. ورجل يرقد بين زوجين. وطفلة تخلفت عن الراحة فأنجبتها الأقدار من سعير الحرب. وحبل يشد حتى ينقطع بعد أن مل صاحبه من تلقيه... و... و... واستغرقت فى النوم.

وقمت فى الصباح أتمطى، وأحسست أن عظامى دقت فى هون، وأن ظهرى مكسور. وكان شعاع نحيل يطل من زجاج النافذة، وقطار يصفر قبل أن يقوم.

وحين فتحت جريدة الصباح، وقف بصرى على صورة، كانت شبيهة بعطيات... كأنها هى... ملامح متطابقة... ما هذا؟

امرأة تقتل بيد عشيقها على سطوح إحدى العمارات؟!

رحماك يارب!!

وأخذت أقرأ وأنا مذهول، وأصوات متداخلة تنصب فى سمعى كما ينصت تهافت الناس على الشاطئ فى آذان الغرقى.

«عثر على جثة امرأة فى حجرة على سطح عمارة مكونة من سبعة أدوار مقتولة بطعنات سكين فى أماكن مختلفة من صدرها وبطنها، ودلت التحريات على أن الذى قتل «عطيات...» هو عشيقها الذى اكترى لها هذا المسكن، وكان يتردد عليها فيه.

وقد ألقى القبض على القاتل، وهو شاب فى الخامسة والعشرين... ».

وقرأت الخبر، ونظرت إلى الصورة. ثم عدت ففعلت. كدت لا أصدق.

لكننى ذكرت فجأة أن هذا الجسد الذى مزقته السكين تمدد فى أحضانى عدة سنوات، وأنه كان من الجائز جدا، أن يكون أما لأولاد أنا أبوهم.

وذكرت الرجل الضعيف، والأم الشريرة، وجمال أفندى، وفراره من مدينة إلى مدينة، حمودة، وأشياء أخرى، وأخيرا... أنا كارنينا...!!

وكانت عيناى مليئتين بالدموع. جدا. وأشباح تتخايل أمامى فى الحجرة فيها صورة مقلوبة لزوجين، وامرأة بشعر بنى وعيون خضر!! ومن خلال الدموع طفت صورة... صورة امرأة سمراء بوجه مخسوف، وعيون واسعة، وفم يبتسم فى تودد ومسالمة. هذه صورة روحية. وكانت مقبلة على وفى يدها عود أخضر... يخيل إلى أنه غصن من زيتون.

وهل يكون الحب إلا سلاما، وهل يكون السلام إلا حبا؟!

(تمت بحمد الله)